الليل والأصوات

مجموعة قصصية

أحمد محمد حميده

القاهرة
١٩٨٣

★★ جحافل الليل

• انهم يأتون من بعيد •• أبصرهم •• « عرايا وحفاة» ينثرون غبار التراب حولهم •• يدبون بحوافر جياد •• يتبادلون الوقوف والسلام •

يتكونون ويلتقون •• يستلمون الدنيــا التى فى الجانب الآخر من الجدار •• يتفرقون •• يدبون بحوافر الجيــاد •• يغشــون البيوت القديمــة والجــدران • والســطوح • يتقلقلون فوق المصــابيح الميتــة •• يتسلقون الأعمدة •• يقدمون تحيــات المســاء والحب للمصــابيح المضــاءة •• ويتقــاتلون فى الزوايا •• و «يقبلون» يهاجون الشقوق والأرصفة والطريق •• يمتدون •• يكتسحون الاعصاب والاجفان المرتخية •• يدخلون الافواه •• «يسكنون» عــربات الحب • بعــد الحب •• ارتكنت فوق الشط •• يتموجون •• يرقصون •• يرتعدون بقوة الزلزلة •• ويتكتلون فى هدوء ••

هدوء ·· ليكونوا للصمت فراشا للنوم المستقر الهنىء ·· ينامون ··

(محموووو ·· د ··)

والصمت المعذول يغزل خيوط المكيدة ·· ينتظر البطن المنفوخ خروج الوليد ·· فوق دهليز المقهى ·· خلف نافذة مطلة على الطريق ··

(محمـــوووو ·· د ·· انى آراك جيـــدا ·· ألم تسمعنى ؟)

فى الليلة الماضية ·· والليالى السابقة لليلة الماضية ·· وعمل الليالى التى تمضى ·· أقف أمام الباب ·· باب مثل آلاف الأبواب ·· انتظر أن يتحرك ويفتح ·· ولا يفتح أترنح ·· استند على الترابزين الرخامى ·· مفتاحى فقط ·· سقط ·· أدق الجرس ·· أنتظر ·· لايسمعون من الداخل ·· لعلهم · لا ·· تسرى فى أذنى ضحكات النشوة والابتهاج ·· أنتشى وأبتهج ·· أضحك ·· علموننى أن أضـحك دائمـا ·· أن يـكون وجهى مفرودا تضحك الجدران والملاعق والصحون · وجميع الطبقات الخشبية ·· ترقص الزجاجات فرحة ·· وهم يضحكون ·· تعلو قهقهاتهم ويرقصون ·· أتخيل أطفال

الطريق عنـدما يرون عبيطا ٠٠ حفـارين أرضى ٠٠ أصدقاء زوجتى الغاليين ٠٠ يضحكون بقوة واعجاب من حضرتى : انها مرفأهم والأمن بعد طول انتظار فى جوف النهـار ووراء المكاتب وخلف نوافذ البنـوك والمتـاجر والعظمـة فى ادارات الفنـادق ٠٠ ومـلاهى الرقص الراقية ٠

أدخـل ٠٠ ترفض زوجتى مصـافحتى لحفـاريها الأعزاء ٠٠ تقول انى أتى توا من بارى ٠٠ ضحكت ٠٠ بصقت فى حلقى ٠٠ استدرت ٠٠ نفثت دخان سيجارتها فى قفاى ٠٠ كانوا يضحكون منى ويسخرون ٠

★★ ارتخت أصابعه فوق القضبان ٠٠ ارتد الى مكانه المظلم ٠

أتاه صوت من الناحية المقابلة للداخل ٠

انتثرت حول أقدام الساقى المتقدم قطط ثلاث ٠٠ كان يحمل زجاجة جديدة ٠٠ وورقة من صحيفة قديمة ٠٠ وضع الزجاجة فوق المائدة ٠٠ ووضع الورقة فوق الدهليز ٠

أراهم ٠٠ عينى كانت بلا عيون ٠٠ لكنى أراهم ٠٠ يضـعون جـذوعهم فى الأرض ٠٠ أبدى النفـور

والصمت ٠٠ يزرعـونها فى طينتها كريهـة الرائحـة والمذاق أدعى ٠٠ الاثارة والسكون ٠٠ ابتلع ريقى ٠٠ يلقون فى وجهى سجائرهم والبصاق ٠٠

لم أدرك حتى الآن ٠٠ ولن أرى حتى الموت ٠٠ لا ٠٠ كيف تحملت الأرض كل هذه الجذوع المقامة ٠٠ وترفض اقامتى ؟ وتطردنى كطفل عبيط ٠٠ يمتص اصبعه ٠٠

ـ كل مركب بريس واحد ٠٠ وأنت مركبك بألف ريس ٠٠ وأنت شراع لدفع الزوابع ٠٠ والعواصف ٠٠ لوحا ٠٠ متينا تستند اليه ضـد السـقوط آشرب ٠٠ أشرب ٠ كلهم أولاد كلاب ٠٠

ترجرجت الماء فى الأكواب التى فى طول وعرض الصباح ٠٠ ناوله صديقه الدائم كوبه ٠٠ والسـاقى يفض الورقة فوق الدهليز ٠٠ ارتفعت أعناق القطط ٠٠ لعقت الذيول والبطون ٠٠ متضخمة ٠٠ انفرجت الورقة عن باقة سمك ٠

ارتد : أطبقت أصابعه على القضبان ٠٠

(محموووو ٠٠ د ٠٠ لن أعيد ماحدث ٠٠ مرة ثانية)

أتاه صوت الآخر عبر الظلام متهكما ٠٠

ولن يعود هو مهما حدث ·· ولن يعيد الكرة ··

وقبل انقضاض القطة الاولى فوق ورقة السمك ·· تحفزت القطتان الاخريان ·· كان الضباب فى الطريق ·· قد افترش الصمت ·· اتخذ من الليل مطية ·· غطى هامات المصابيح الممتدة بطول الأرصفة ·· كافح الضياء الواهن من أجل البقاء ·· وحين توغل الضباب كاتما للضوء ·· أذعن الآخر مستسلما شاحبا ··

انفرج خلق صديقه الأبدى عن قطعة جبن ضخمة وقال ··

ـ البرد بدأ يظهر قذارته وغباوته ··

تأوه حينئذ ·· تراءت له أشباح تتحرك بين الدخان الخارجى ··

ـ أيام ··

رفع صديقه كوبه ·· سكبه فى حلقه ·· قال محموه ··

ـ أيام ·· رحم الله أيام «أبا عليطه» وزمن «أبا عليطه» وليالى «أبا عليطه» وسهراته الحلوة التى لاتنسى ··

ابتلع صديقه قطعة خيار مقضومة .. قال من خلالها :

– اشتقت هكذا سريعا لشرب الزفت – الخمير – ؟

– ما أحلاه فى ليالى البرد .

– ونوم الاكشاك وعربات الترام المركونة ليلا ؟.

– ليتها دامت أبدا .

– آه .. اشرب يارجل .. اشرب .. دعك من ذكريات الفقر والبؤس ، ها أنت أفضل من أمير . أمير بلا امارة .. ملك بلا دولة ولا عرش .. حاكم بدون شعب .

– يبدو الحنين الى البلطجية قد عاودك ؟

تطلع اليه .. كانت القطط حول ورقة السمك تجفف أفواهها وشواربها تخترق الاشباح منطقة ضبابية قريبة .. يقفون ويقتربون من بعضهم .. يلتصقون ويبتعدون .. تصله همساتهم عبر النسمات الآتية من قبلهم .. يضحكون ويصمتون ..

انى أراك جيدا يامحموووو .. د .. أن يرق لك فستانى .. أذهب

وأبدله بآخر ٠٠؟ والصوت الخلفى يقول :

ـ كان ٠٠ زمان الزمان ٠٠ قبل استحوذ الأقفية عليك ٠٠ ها

محمووووود ٠٠ انى أعرف ٠٠ انك مازلت غضبان منى ٠٠ ولكننى سوف أضحى بأى شىء من أجلك ٠٠

والصوت الخلفى يقول :

ـ ان كان ٠٠ ان كان موجود ٠٠

ـ أقـول ٠٠ ان أيام البلطجة ٠٠ تلك ٠٠ كان شرفى معلقا هنا فوق صدرى ٠٠ كالنيشان ٠٠ وكرامتى ٠٠ وضعتها فوق أثمالى للزينة والذهو ٠٠ آواجه بها نظرات رجال قسم اللبان حين يسطون للرزق ٠٠ الداخلين منهم والخارجين ٠٠ فى أزقة وحوارى ابن غزالة وابن بطوطة وبيوت كوم بكير وأحراش جبل الطبجية ٠٠ كان الرجال يحسدون رجولتى التى كانت ٠٠ آترى هـذه العضلات ٠٠ أين كان موقعهـا من جسـدى ؟ أين هى الآن ؟

ـ ابتلعتها الأرض فى جوفها وأصبحت نفاية قذرة فى البالوعات وطرق المجارى ٠٠

وضحت الاشباح حين صمت ·· شابين ·· فتاة انتزعت من حجر أمها منذ سنوات قصار ·· فتلقفتها حجور أخرى أكثر خشونة ·· أصبحت جديرة بالتلقى والاهتمام ·· ومكانة أعلى مما كانت عليه ··

ـ تسألنى عن نفسى ·· أقول أفضل البقاء هكذا ·· بقية حياتى ·· مائدة وكرسى وكوب وزجاجة · وطبق جبن تركى وخيار ··

أنسيت أيام زمان ياحودة ·· حين كان الحب فى القلب كالحديد ··؟ اخترق موانع كوم بكير بجبروته ·· أقبل على أكبر بيوت المتعة هناك ·· شهر نفسه كالسيف المطلى الحاد ، على صاحب البيت ·· كما شهر كرامته وحبه وصفاء سريرته وحسن نواياه وقوته وفلوسه ·· وطلب أن تكون تلك الفتاة التى نزحت معه من أحد بارات الساحل ·· أن تكون زوجة له ··

رفع الكوب ·· ابتلع مافيه بسرعة ··

ـ زكرتك ملعونة وأنت ألعن ··

(لا أريد منك غير أن تنظر الى يامحمود ·· لعلك نسيت نزهتك لى فى عرض البحر ···؟)

قال الصوت الآخر :

ــ ضــاعت كل النقــود التى كانت معــه ٠٠ فى حراسة الأبواب ٠٠ أصبح الآن يحرس الأبواب ٠٠ فما قولك فيه ياابنة الزانية ؟٠٠ اشرب ٠٠ اشرب ٠٠ يا ٠٠ خنف ٠٠

والأشــباح يبدون ٠٠ يراهم ٠٠ علا صوت الفتاة قليــلا ٠٠ ضحكت ٠٠ تلقفتها الأحضــان والأيدى ٠٠ بالتناوب ٠٠ أتى ثالث ٠٠ آخذها وتقــدم بها قليلا ٠ توقفوا جميعا ٠٠ بدأت الأصابع الصغيرة تجوب الابدان والشعور ٠٠ كانت تتحرك بخوف ٠٠ أمسكوا بها ٠٠ تحركت ٠٠ تراجعت اقتربوا منها حتى الالتصاق ٠٠ ارتعــدت وضحكت ٠٠ قشرة أرض ملتهبــة تهتز ٠٠ يحدقون ٠٠ يهتزون بحركات سريعة ٠٠ حين انطرحت فوق الأرض بدأ شق فى الأرض ٠٠ راحــوا يدعكون القشرة ليتسع الشــق ٠٠ ينفرج وتفــور القشرة ٠٠ تتحرك ٠٠ فلاحون ٠٠ أخرجوا جرادلهم ليسقوا الأرض يتسع الشق الخفاق ٠٠ يمدون جرادلهم ٠٠ تكاد أبخرة الأرض الملتهبة أن تطمس العيــون ٠٠ لما مادت الأرض انفلت الشق ٠٠ انفــرج تضرت الايدى والاصــابع تناثرت ٠٠ حالت فى القشرة ٠٠ حاولوا سكب الجرادل التى طفح بها الماء ٠ انسكب بعضه على حواف الجرادل

وبقى بعضه بالقوة انضم جانبى الشق واهتزت الأرض وتلاقت الأطراف ٠٠ بقوة ٠٠ بوهن تخاذلت وانفرج الشق وانتقض وفاضت الجرادل ٠٠ علا نبض القشرة وارتفع ٠٠ مارت النيران فى البطن الفـائر ٠ ازداد الشحوب وعم الصمت وحجبت الرؤية وسيطر اللهاث٠٠ وسـال اللعاب ورفـع الكوب وتجـرع مافيه ٠ وقال صديقه ولم يسـمعه ٠٠ تراءت لى الأقفية أكثر طـولا استطالت ٠٠ تضخمت ملأت الأمكنـة ٠٠ ملساء مكثفة استقامت الجذوع ٠٠

(محموود ٠٠ انى عـزمت على الرحيـل ٠٠ انى ذاهبة ٠٠)

انضـمت الأرض ٠ تكرمشت القشرة ٠٠ انقض الشبان ٠٠ البصقة فى الحلق ٠٠ الصـفعة فى القفا ٠ انشق ٠ الاقفية ٠٠ غلت القشرة الارضـية ٠٠ تنذر بالتفجر القـريب ٠٠ الاقفية ٠٠ الجـذوع : مزقت الأصابع الثلاثون ٠ قشرة الشق ٠٠ جاست فى الأرض فسادا ٠٠ فى الأجساد كانت تعبث ٠٠ فى الصدور ٠٠ ارتفعت البطن والقدمين والدم الفائر فى غيبوبته الموتى يتسلل طرفى الشـق الذى فى الأرض السـاكنة ٠٠ ساكنون كانوا ٠٠

محموود •• أرجوك •• رد على •• مرة واحـدة فقط •• رد على فقط •• رد على أعرف أنك أسفت لعدم موتى •• ولكنى سأقتل نفسى •• سأذهب ••

وقف هو •• تحـرك قليلا الى الخـارج •• هبط الدهليز •• قال صديقه ••

ـ ماذا حدث ••؟ الى أين ؟؟ الليل لم ينته بعـد •• لم يزل طويلا ؟

ـ انى ذاهب •

تحركت أطراف صديقه •• ترنح الرأس واليدان وقام من فوق كرسيه الداخلى • لم يكد يفعل حتى تلقاه الكرسى •

ـ لكنك لم تعودنا على هذا اللون •• من الحياة ••؟ ثم ان الناس جميعا •• يبدأون سـهرتهم من الآن •• كلهم فى حالة سكر مستمر •• ولم تعودنا على ذلك ••

ـ على ماذا ••؟

ـ على ذلك ••

ـ الساعة الآن الواحدة •• بودى •• الرجوع الى البيت الآن ••

الطريق حمام محكم الاقفال •• لايسمح بشرب الأبخرة •• يسكنه الصمت •• اختفى فيه الاسفلت ••

ـ انك غريب •• شكلك غريب •• صرخات صوتك غريبة •• قل لى •• ماذا تريد أن تفعل ؟

قام •• خرج عن ركنه •• يزداد الحمام اختناقا ••

ـ انى ذاهب ••

ـ فى الأمر سر ياحنف ••؟

ترتفع الابخرة •• تحوطه •• تجثم فوق صدره ••

ـ انى ذاهب ••

ـ ماذا تنوى أن تفعل ياحنف ؟

الصمت فى الحمام والضيقة فى الصدر ••

ـ انى ذاهب ••

ـ أثر عليك الشرب ياحنف ؟

ـ انى ذاهب ••

ـ لن تكون وحدك ياحنف ؟

ـ انى ذاهب ••

(ولسوف أقتل نفسى ٠٠ ها أنا ذاهبة ٠٠)

قال الصوت الخلفى

ــ مع الشيطان الرجيم ٠٠ ليت نشاهد طريقة موتك ونشارك فيها ٠٠

ساكتب قصة يوم ما باسم راقصة شمطاء ٠

انطلق ٠٠ يتكون الضباب بثقله ٠٠ يستقر فوق الصدر ٠٠ يغشى القلب والرئتين ٠٠ يمـد الخطى ٠٠ صاح صديقه ٠٠

ــ انتظر ياحنف ٠٠ انى ذاهب معك ٠٠ نعم ٠٠ نعم ٠٠

ملأ كوب من زجاجة الماء ٠٠ تجرعه ٠ الليل يوشك على الرحيل ٠٠ ان يودع المدينة ٠ ويبدأ الضباب فى الاذابة مخلفا عرق فوق الاسفلت والبيوت والمصابيح٠٠ خيوط الفجر تتسلل من بعيد مقتربة ٠٠ تتلاشى عندها بعض النجوم المجاورة الزاحف عليها النور ٠٠

مطارق الغضب فى الرأس المترنح ٠٠

« صعدت درجات دولتى ٠٠ كغريم لزوج أكرهه ٠٠ كان الباب مفتوحا أدركت آن الأعوان ٠ الازواج ٠٠

الفلاحون ·· يعدون العدة للجدث ·· الجذوع والأرض في اجتماع سرى جدا ·· ولا أريد أن أفض هذا الاجتماع ·· ولا أريد أن أسطو ·· وأتناول من بين أيديهم ·· كرامتى ·· وحقى ·· أن أسترد أرضى المسلوبة ·· المباحة لاقامة الجذوع والحدث حين أغلقت الباب ·· ترادفت الأنفاس ·· حفيف ·· حفيف ·· يصعد من زوايا المكان ·· يقبل من الابواب المقفلة دوما دونى ·· تلك الأبواب التى تؤدى بعضها الى البعض الآخر ·· متداخلة ·· كيف لاأدرى ·· مقفلة دائما دونى ·· تخفى عنى حقيقة شقتى ·· معالم مملكتى ·· تنزف كآبتى وتفكيرى ·· مقتولا تحت ضربات الاقفية ·

·· فتحت الباب ·· أقبل صديقى ·

ـ نسيت أنى كنت معك ··؟

ـ نعم ·· نسيت ·

ـ وأنا أيضا نسيت أنك كنت معى ·· وكدت أنام فوق السلم · وصمت ·· ترنح ·· تطلع الى الأبواب الكثيرة المقفلة ·· والاثاث والجدران ·· دهش وكاد يسقط ·· قال وهو يلقى بدنه فوق مقعد ·

ـ هذه شقتك ··؟

ـ لا ٠٠ شقة زوجتى ٠٠

ـ عظيمة ٠ عظيمة ٠

ونسيت ماقاله ٠٠ ومـد قدميه وتثائب وتمطى ومال رأسه ونام ٠

محمود ٠٠ لقـد بردت ٠٠ بـدأت أرتعش ٠٠ سأذهب ٠٠ ارتد الى النافذة ٠٠ أطل بنظراته فى الظلام المنسحب ٠٠ حين كان يفعل ٠٠ قال الصـوت الخلفى محمود ٠٠ تعال ٠٠ لن ينفع الحنق بعد اليوم ٠

انحنى ٠٠ عينى فى ثقب المفتـاح ٠٠ تطـالعنى الجذوع ٠٠ تسد الثقب بأبدانها العريضة ٠٠ توارى ٠٠ أسمع حفيف الأنفـاس ٠٠ تعتلج بالداخـل ٠٠ رأيت الفراش المدعو لى ٠٠ كانت الأرض ٠٠ اقترب تطالعنى المؤخرات ٠٠ سوداء البشرة ٠٠ كالقشف ٠ كالصدأ ٠ كأبدان النحل ٠٠ تفتح ٠٠ اسمع الضحك ٠ أتحرك ٠٠ الهمس القبلات ٠٠ تنضم ٠٠ يعلو الحفيف ٠٠ تنحنى الجذوع ٠٠ الفجر فوق السطوح يلوح ٠٠ يوقظ النيام ٠٠ والفلاحون يودون الرحيل عن الأرض ٠ حركة فى دورة المياه ٠٠ حركة صديقى النائم ٠٠ حركة الجذوع٠ ماء صنبور تحته طشت ٠٠ أصـوات زجاجات تفرغ ٠

أكواب تملأ .. ضحكات متآكلة الأطراف .. صامتة .. تحركت .. القفا فى عينى .. في عقلى .. مستطيلا .. منحنيا ومعروفا .. مبتلا .. مختفى الوجه . فى طين الأرض .. مادت تشققت . صدعت .. أخرجت أفكارها .. ألقت جذعها .. جاءوا الآخرين .. عرايا وحفاة .. يضحكون .. ترتسم الخمر فوق الجباه .. يضحكون ويهتزون .. وقفـوا ينظروا .. امتـدت أيديهم .. دفاعا عن الأرض .. ترنحت .. ترنحوا جميعا .. مادت الارض .. بدأت المملكة يشوبها الشحوب والقتامة : كأن أبخـرة الضـباب قد تسللت عبر فتحات النـوافذ والأبواب والثقوب واسـتقرت هنـا .. كان يزداد . ويسعلون .. يولون الوجوه ناحية الحوائط والدولاب .. يستندون ويسعلون .. أسعل .. يخرجون مناديلهم ويكتمون بها الأفواه وفتحات الانوف .. يسعلون .. أسعل وأهتز .

صحبنى صديقى .. تخلصت منه .. يدى والاقفية .. ترنحت يدى .. ساحت هنا وهناك . ضاربة ذات اليمين وذات الشمال .. صـافعة صـافعة .. الاقفية تنحنى .

وجدت نفسى أضحك بقوة وهم يسعلون ·· جذبنى صديقي ·· صاح وهو يقفل الباب ··

ـ هيا من هنا ·· ستشعل الشقة بعد قليل ·

ـ بعد قليل ··؟ مملكتى ··؟

ـ أسرع ·· اننى فقت الآن ·· ويجب أن نلحق الخمار ··

ـ ماذا فعلت أيها المجنون ··؟

ـ ابحث عن كرامتك ياصديقى ·· تحت الموائد والكراسى والاسرة وأوانى المطبخ ·· اطلقت أمبـوبة الغاز فى حجرتهم ·· ليتهم يستطيعون اشعال السجائر الآن ·· ليتهم كانوا ·· يعرفوننى منذ آن ·

و ·· الفجر ·

الصوت فى الخارج ·· انطلقت أصـوات متداخلة وقوية ·· آتية من آمكنة متفرقة · آخرج سيجارة ·· اتجهت العيون الى الباب الرئيسى ·· ارتفعت القلوب وهبطت ·· دقت بعنف ·· الضجيج يقترب ·· يعلو ويقترب ·· أخرج عود ثقاب · سعل وضحك ··

····

(محمود ٠٠ انى ذاهبة ٠٠)

ـ انها كالعفاريت ٠٠ الشياطين ٠٠ لايظهرون الا فى الليل ٠

٠ ٠ ٠ ٠

الآخـرون ٠ يأتون ٠ يدبـون ٠٠ الصـلاة ٠٠ المؤمنون ٠٠ بدأ الضوء ٠٠ توافد الناس ٠٠ نساء ٠٠ رجال ٠٠ صياح ٠٠ صراخ ٠٠ بكاء ٠ جرى ٠ نوافذ البيوت والشرفات ٠٠ أطلت الوجوه والحناجر ارتفعت ٠٠ يأتون ابصرهم ٠٠ الجنود ٠٠ يجيئون ويذهبون ٠٠ يزرعون الأرصفة ٠٠ يدفعون الاهالى ٠٠ يروون الحدث ٠٠ يدفعون أهالى المكان ٠٠ والنزلاء يحملون حقائب جلدية ٠٠ ورقية ٠٠ يمـدون الأصـابع والأيدى ٠٠ مرفوعة بكل شىء ٠٠ سجائر ٠٠ طعام ٠٠ ونقود ٠

دفعها الجندى بعيدا ٠٠ بعيدا ٠

تراخت يده فوق القضبان ٠٠ ارتد الى مكانه ٠٠ كان صديقه الخلفى ٠٠ يقول :

ـ تعال ٠٠ لن يأت أحد لزيارتنا ٠

ثم ضحك ٠

ـ ونحمد الله الذى وهبنا الافاقة ووجد لنا مأوى عوضا عن الرصيف والمقهى ٠

المشدوه

أهذه هي نهاية الاستقامة خلف أئمة المساجد ومعاشرة الأتقياء من عباد الله الصالحين وخلف جدران الشركة واشارة الصحاب بالحب والوقار ؟٠٠ أن أكون قرطاسا أفرغ وامتلىء كلما أرادوا لى ذلك ؟٠٠٠

أعوذ بالله ٠٠ آستغفر الله ٠٠ سبحان ربى العظيم ٠٠

أمعقول أن يكون عبد المتعال أفندى ٠٠ موضع تقدير الجيران ومحط أنظار الشرفاء من رواد المقهى وقوفا كانوا أو جلوسا ٠٠ قد آصبح دلوا ٠٠؟٠٠ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ٠٠ اللهم ارحم واغفر ٠٠ الله آكبر ٠٠ و ٠٠ ولكن كيف وصلت هذه الزجاجة الى رف الدولاب ؟

أصار بيتى مأوى لطلاب الحب والمتعة فى ليالى عملى الليلى ٠٠؟٠ ملعونة امرأة لوط ٠ آفار هو ؟ أم عدة فئران ؟٠ انهم يتصارعون فى كل مكان من الارض ٠٠

اللهم اجعله خيرا ·· والسـلام على سـيدنا محمد ·· كيف تسنى له الدخول ؟ بأمر من ؟·· لابد من أن أعثر على ذاك الفأر ·· ومن أدرانى بأنه فأر ؟·· زجاجة فى الدولاب ·· السلام عليكم ورحمة الله ·· أقريب هو · أم تراه غريبا ؟

وكان محدقا فى الأرض «ولكن لابد من اصطياده»· أخرج منديله وجفف عرقه ·· امتدت يد الذى يجاوره فى الصف وقال ··

ــ ياعبده أفندى ·· ياعبده أفندى حرما ··

التف الرأس بسرعة ··

جمعا ·· جمعا ··

ضيقة شوارع المدينة ·· مطموسة المعالم (أمخبوءة الفئران خلف جدرانك العتيقة ، جائعة تحفر فى الجحور) اليد فى قاع الجيب ·· بعيدة عن مربعات الطريق الحجرى ·· فولاذية القروش (تأخذ أكثر مما ينبغى ·· تقبل يدى كل صباح عندما أعود · تكاد تحملنى لتلقى بى فوق الفراش لأستريح من كد الليل وأنام ويدها تحنو فوق صدرى ورأسى ·

طيبة ومقنعة ·· اللص ذلك الذى أوصل الزجاجة الى رف الدولاب ··؟·· بنايات الحكومة تلفظ عمالها وعمـلاءها ·· أبواب المدارس تنـدفع منهـا الأجنـة صارخة ··

يتلاحمون ويختنق الشارع ويمضون تلهب رؤوسهم الشمس ·· تتموج الأجساد ·· (أيدنو العالم من حفرة المنتهى ؟· أبعث الموتى وحدثت الأرض أخبارها ؟ وبعثر من فى القبـور وانطلقوا ؟ يالطف الله ·· أعمى هم الجيران ؟ ألا يسمعون ·· أليس فى البيت من دافـع ؟ ولكن · ليس معقول أن يكون للزجاجة أجنحة تبلغ بها محط الشرفاء ومكامن الكارهين لها ؟· ·· و ·· لابد من قبضة ··) ارتد عن باب الصـيدلية حين كاد أن يصطدم بها ·· تحركت يده بالقروش فى قاع الجيب ·· نظر اليه الصيدلى وقال ··

ـ أفندم ···

·· تبدو الحب والولاء والرعاية ·· صوبى ·· لم يكن للاطفال نصيب معنا ·· أراحنا الله نعمة الاطفال ·· كأنه يعد سبحانه لهذا اللقاء ·· أستغفر الله · هذا مالم أكن أفكر فيه ··

ــ فــأر ٠٠

احتوى الكف الزجاجة ٠٠ وضعت فى جيب الجاكت ٠٠ صغيرة وقاتمة اللون ٠ فالوجوه المسـودة (عريضة السـمـوات والأرض والكون ٠٠ ذرات نحن من الرمل براغيث تحط فى ظهور الفئران ٠ قطط عمياء معدومة الحس ٠٠ تدبر منهن الفئران فرارا ٠٠ أجاءنا ضيف و ٠٠ أبدا ٠٠)

بابه ٠ كباب حجرة زليخة قائم وعال ومحكم الاغلاق (٠٠ هيت لك ــ أيكون هنــاك ؟ معــاذ الله ٠ ملعونة شياطين العالم ٠ من يقول هذا الآن ؟ آتستطيع الفئران يومئذ أن تهرب فى الجحور ؟)

صــوت الراديو فى اذنه : يتلو آيات من القــرآن الكريم ٠٠ أحلى ما تستقبله به قرآن كريم ٠٠ يشـجيه ويفك كربه وينظم أفكاره ويبعدها عن السوء ٠ تكون الابتسامة الحلوة فوق الوجه الملفوف فى شال أبيض ٠ قائمة لتوها من فوق سجادة الركوع لله ٠٠ تخفض بصرها حين يحاول رؤيتها ٠٠ تنظر الى جيوب البنطلون أم الى الأرض من شدة الورع والتقوى ٠ لايعلم ٠٠ يعلم الله ٠٠ أتحترم الزوج اذن رب البيت ووليــه ٠٠؟ فتحت

وأقبل ٠٠ كالمسود يستقبل سيده ٠ كانت ٠٠ ود لو يرفع ذقنها التى حرمها حتى يتبين ماخفى عنه ٠٠ ليرى مايخفيه هذا الشال الأبيض الذى لايقربه فى اللقاءات الزوجية المعلومة ٠٠ فى السكون والظلمات ٠٠ يغوص فى العينين ليخرج المخبوء ٠٠ ظالمة ٠٠؟ أم ٠٠ ود لو سألها عن تلك الجريمة الربانية الموجودة فى رف الدولاب العلوى المتروك للمتروكات ٠ ستكون الاجابة ٠٠ يعلم الله ٠٠ أنى لا أقرب المنكر ٠ وربما ألقت بها من النافذة ٠٠ وحين ٠٠ امتدت خطواته الى الداخل ٠ توقفت هى ٠٠ أعدت مائدة الطعام ٠٠ العشاء سم ٠٠ الفئران فى المدينة ٠٠ تتبرز فوقه ٠٠ كفئران الجحور ٠٠ متخفيا خلف القمامة وبقايا الخبس ٠٠ جامدة أشياء البيت ٠٠ (أفى الدولاب يكون ، ٠٠ فى حجـرة النـوم ٠٠ تحت السرير ٠٠؟ فى دولاب الأوانى ؟ زاغت نظراته تحت المائدة فى الستائر المعلقة ٠٠ أيدوس عنقها ويدسها فى فى التراب لتكون للناس عبرة ٠؟ ولكن أستغفر الله ٠٠ كانت تنتظر بالفوطة حتى انتهى من اغتسالى ٠٠ يصلنى همسها الرقيق ٠٠ لابد أنى أخطـأت فى الزجاجة ٠٠ لا أصدق أنهـا كذلك أنى آثم ولكن هـذه زجاجة خمر ونصف مملوءة ٠٠) حين تطلع اليهـا ٠ وجـدها تأكل

بشهية .. لم تسأله لم لم يأكل .. انه دائم الشكوى .. مصدود النفس .. ان الذكر بالله والتسبيح يجعلانه كالعاشق الهيمان زاهدا وشبعانا ـ كان يأكل فى العمل ماتصل اليه يده .. ينام مبكرا فى ليالى العمل النهارى يقرأ كثيرا ويقول ان الدنيا بين يدى الله ونحن عوالم يستطيع سحقها وقتما يشاء .. وان الحروب تقوم نتيجة لأفعال وتصرفات النساء . وان الجوع سيصبح وباء عالميا فالتناسل عظيم ولكنا لن نجوع فنحن لانملك أولادا .. ويضحك ويملأ الدنيا تكبيرا .. وان دول العالم المتحضر على درجة عالية من الانحلال» وان .. وقام الى حجرة النوم ..

(أراقدة فوق الرف لم تنتشل لتخفى سرها .. ولكنها تعلم أنى لا أدنوا من ذلك الرف) وأغلق الباب .. راح يخلع ملابسه .. أدار المفتاح فى الثقب .. أعاد ماخلعه من ثياب .. اتجه الى الدولاب .. كما هى راقدة . تناولها وأخرج الزجاجة من جيبه .. أفرغ هذه فى الأخرى .. أعادها الى مكانها وأغلق الدولاب وأدار المفتاح فى الثقب وجلس فوق حرف السرير .. يتطلع اليه بحنق ..

مألوفة الوجوه .. مكتئبة او ضاحكة .. محتقنة

العيون ·· تضع الابتسام فوق سحنات مازالت آثار كرمشة الوسائد الجافة تاركة علاماتها المتعرجة فوقها ·· تحاول العيون المتلاقية الاجفان أن تفتح وجوها قبعت خلف بالات الأثواب ·· استعرضها جميعا · (لعلهم يدركون ماأعانى كلهم يتطلعون · تدركهم الصحوة ينتشون ·· رأيتهم يقتربون · أو اقترب فابتعد ·· كأنهم سيسألوننى عما أكابد) وجه بصره للجهات الأخرى ·· نكس رأسه · كانت عيونهم تنفذ الى مابداخله · (بدت ذات قرون ؟· وأصبحت كبشا) استدار ·· زاغت نظراته · ارتفعت فى قلبه الدقات ·· تصاعدت الى ماتحت القرون ·· بدأ يحدق فى هذه الوجوه المتفرقة من حوله (كلهم هنا ·· لكن · أحدهم · أحدهم ·· أعرف أن أحدهم لم يكن موجودا) ··

انطمست الوجوه ·· تضخمت القرون ·· ظلت ترتفع ·· انطلق الى أبواب الادارة ·· مسحت نظراته كل الأشياء الدواليب والمكاتب ·· أغلق الباب» بدأت العيون المتفرقة تأتيه من كل مكان · ترتشق بقرنيه الطويلين ·· يمتلىء بهما · اندفع الى الممرات ·· دورات المياه · المطعم ·· (أحدهم غائبا ··) (من هو ؟) لم يدر بيده وهو يدير الوجوه وينظر اليها ·· صدئة وكالحة

ومستغربة •• كلهم متشابهون استنكروا أفعاله •• انطلق •• غريبة أفعال رجل وقور •• اتجه صوب مكتب الأفراد •• خاو •• الا من الملاحظ •• تطلع اليه وولاه ظهره وانصرف •• نهض الملاحظ • أوقفه وقال ••

ــ عبد المتعال أفندى ؟•

مشدوها كان • قال الملاحظ •• : غريبة أراك حزينا • وغريب •• ماذا ؟

ــ لاشيء •• لاشيء ••

تحرك لينصرف • اجلسه • قال الملاحظ ••

أبدا •• انك تبدو مهموما جدا ••

ــ أين ••••

حدق الملاحظ فى عينيه وقال •••

ــ تبحث عن من ؟

ــ عن فأر ••

فأر ؟ الدنيا مليئة بالفئران ياعبده أفندى ••

ــ من • لم يأت ؟

ـ كثيرون ٠٠ مرضى ٠ منقطعون ٠٠ و ٠٠

تركه وانطلق ٠٠ عبر المكان ٠ (ربما أحد هؤلاء المرضى الغـائبين ٠٠ المرضى دائمـا مرضى وجبنـاء وغائبون ٠٠

ضرب الملاحظ كفا بكف ٠٠ حين بلغ حارس الباب أخلى الرجل الطريق رافعا يده بالتحية ٠٠ كل البيوت نائمة ومظلمة (قليل من صادفنى فى هذا الشارع ٠٠ بعضهم فى المقهى ٠٠ سطحية معـرفتى بالجـيران ٠٠ أينسل أحدهم خفية والبيت واحد ٠؟٠٠ والمقهى ٠ خلية نحل تؤنس صمت الشارع ٠٠ والصمت فى الأركان٠٠ فى بئر السـلم والظلمات فى الأدوار العلى متكاثفـة وقدماه تترفق بالدرجات والدقات فى القلب والرأس ٠٠ (أيكون جاء ٠ أم انصرف ٠٠ الثانية الآن والليل الثقيل ٠ وهى ٠ أين يكون) والصمت فى الشقة ٠ قرع الباب ٠ انشرخ الصمتوقرع الباب ٠ وانسل الصمت٠ لكنه هبط السلم وخرج الى الشارع والمقهى تلفظ آخـر روادها وتجمع أشياءها ٠ انزوى فى ركن التليفون ٠٠ تحدث فى رفق ولين ٠٠ أغلق آخر باب فى المقهى حينما خرج ٠ وعاد الصمت فلا مارة ولا ضوء غـير مصابيح فوق الحيطان نصفها خامد أو مطفىء ٠٠

توقفت عربتان واختفى هو ٠٠ خرج منهما بعض الرجال ٠٠ يرتدون الملابس البيضاء ٠ يحملون نقالة ٠٠ توجهوا الى الادوار العالية ٠٠ آتبعهم ضابط وجنوده ٠٠ أوقظ دبيب أحذيتهم النيام ٠ تفتحت أبواب الشقق عندما حطموا الباب (أيكون هناك فأر حقا ؟ أم يكون البلاغ كاذبا ٠٠؟) اقتربت أصوات الجيران ٠٠ رويدا ٠ يصرخون ٠٠ تتباعد همساتهم العالية ٠٠ ترتفع الاصوات وتتقاتل ٠٠ كانوا يهبطون بالنقالة وقد غطيت بملاءة كالحة الصفرة ٠٠ رفع آحدهم ذراعيه ٠٠

ــ ألطف يالطاف العرايا ٠٠

ــ استر نساءنا يارب ٠٠

ادخلت النقالة احدى العربتين وأغلق بابها ٠٠ اختفى الجنود فى عربة أخرى ٠٠ أطلت الرؤوس من الشرفات ٠ مذعورة كانت وباكية ٠٠ حينما اختفت العربتان وافترش الصمت الشارع رآى بعضهم عبد المتعال أفندى يسير ببطء متجها صوب الشارع ٠٠

و .. انه سوف يعود

كتب على اللوحة «محمود خالد الطيب» فى العينين الاسم والذاكرة .. لملمت ثوبها الاسود البالى .. مشرئبة الرأس محدقة ناظرة ..

قعدت على الرصيف المقابل للوحة بحيث تكون فى محاذاة بصرها الضارب فى وله .. الذين يعبرون الشارع من أمامها .. يلقون اليها التحايا ونظرات الابتسام .. يشمخون آنوفهم والرؤوس .. يبرزون صدورهم فى خيلاء .. وحين يتوقفون أمامها ـ عفوا ـ تحجب اللوحة عن مدى بصرها .. تنهض فزعة .. تزول البسمة المتضخمة والتأمل وتدفع الوقوف بعيدا .. فى الزمن المقتول .. الملقى فوق أرصفة المحطة .. تكون .. تنزل صرتها وحقيبة يدها القديمة .. تضم ثوبها المهترىء حول سيقانها العجفاء .. تتطلع فيما حولها .. تنظر الى القضبان البعيدة .. لعله يجيىء .. قطار سوف يجيىء يحمله اليها .. والذعر فى العينين .. بدأت تشد مقدمة القطار الآتى . حين توقف .. بدأت

أفواج من الجنود تنزل الرصيف •• كانت تمر مسرعة بجانبها •• جابت عيناها كل الذين مروا •• كانت تدرك تماما أنه ليس فيهم •• نبضـات القلب المتلهف خـوفا تنبئها بذلك •• يجيئون •• يسحقون آخر ماتبقى من رائحته فى ذاكرتها المتعبة •• تزحف أحذيتهم الثقيلة فوق الرصيف •• جاءوا • يجرجرون أورامهم والعرق •• يقبلون ناحية باب الخـروج •• يدفعـون أبدانهم النحيلة والقروح •• لكنهم جاءوا واحدا •• واحدا •• تضج أصواتهم فى جوانب المحطـة •• وهو •• ولدها الماثل فى العينين التى جابت كل الوجوه •• يشـبهونه جميعا •• لكنهم يسرعون ••

(يحمل بندقية •• يتراقص فى منتصف الصالة •• يجوب حجرات الشقة بحذائه الكبير •• يريها عضلات سيقانه ويتقافز •• شعره المقصوص حديثا • ونجمته أعلى المنكب • يزأر •• تفزع لصوته القوى وتضحك ••

ـ لاتخافى ياأمى •• ألا ترين أنى ضابط قوى ؟ كنت أود لو رآنى أخى الآن كيف تكون العضـلات •• لكنه فى الخارج •

تكتنفها لحظة حزن وصمت لكنه يقول :

ــ أنظرى ٠٠ عضلاتى تضخمت ٠٠ أتدرب جيدا ٠٠ آكل الثعابين والفئران من سفوح الجبال ٠٠ صاعقة ٠٠ صاعقة ٠٠ أستطيع الآن أن آكل كل ماتصنعين من طعام ٠٠ لن أرفض شيئا ٠٠ وأستطيع أيضا أن أقهر عدوى وعدوك وعدو الجيران ٠٠

تراه ٠ ترى فيــه صــلابة الوالد والجـد والأنفة والشموخ ٠ صوته القوى يرن فى الجدران ٠٠ فى ذات الموقع ٠٠ كان ٠٠ يتحــرك بين الحجــرات ٠٠ «كنت جنينا يامحمود ٠٠ منذ العام السادس والخمسون ٠ حين حملنى الى الخنــدق القــريب ٠٠ تحت الغــارات كان يحملنى ٠٠» ترتعش الذاكرة فى البدن الواهن ٠٠ تزغ فيها النظرات ٠٠ يضمها الى صدره ٠٠ «أسمع صرخات القابعين بالخنــدق ٠٠ عــروس كنت ياولدى ٠٠ كان والدك يحمل المارين من الطريق ويدخلهم الخنــدق ٠٠ يباشر الأطفال والنسوة ٠٠ وقتئذ ٠٠ انفجرت بالخارج قنبلة ٠٠ أطاحت برؤوس البعض ٠٠ كان هناك والدك ٠٠ تناثرت أشــلاؤه مع الذين تمزقوا ٠٠ تمزقوا) ٠ يتفرقون من حــولها ٠٠ كانوا ينتهون حــين تصــدت بعضهم ٠٠

ـ ألم تـروه ؟٠٠ ولدى ٠٠ هنـاك ٠٠ انه كان هناك ؟

تشبثت الأصابع المعروقة بسترات الجنود ٠٠

ـ انه مثلكم ٠٠ ذهب معكم ٠٠ كان معكم دائما ٠٠ ألم تروه ؟٠٠ ألم تروه ؟

برفق ٠٠ تشيح الرؤوس ألما ٠٠ يخلصون الأصابع ٠٠ تتشابك بأيديهم المجروحة ويسرعون ٠٠ تذوب بين الصخب ودقات القلوب الفرحة بالعودة ٠٠ يضحون ٠٠ يفسحون مابين دورانها وأبدانهم المرهقة ٠٠ أخرجت صورته ٠٠

ـ هذه صورته ٠٠ انظروا ٠٠ هذه صورته ٠٠ اسمه محمود خالد الطيب ٠

لكنهم يمرون ٠٠ تتآكل فى أصواتهم كلماتها ٠٠ بودهم خلع الثياب القيد ٠٠ الأحذية الأغلال ٠٠ الزمن الموغل فى القرف والرعب واحصاء الثوانى بذرات الرمل وقتل الليالى سهرا وقهرا ٠٠ حدقتيها ولد ٠٠ صورة فى الذهن قائمة ٠٠

حين سـقط الصمت فـوق الرصيف ٠٠ دارت ٠٠

أسرعت ٠٠ صعدت آخر عربة بالقطار ٠٠ كان بعضهم متفرقا فوق المقاعد الخالية والرفوف نياماهم ٠٠ برفق وحذر ٠ اقتربت وزغدت أحدهم ٠٠ قائلة : ولدى ٠٠ ولدى ؟

تيقظ الغافل ضجرا ٠٠

ـ من ٠٠ ؟

ـ انت ولدى ٠٠ هو أنت ٠٠ ألا تعرفنى ؟

ـ دعينى أنام ٠ أرجوك ٠ دعينى وشأنى ٠

ـ ألست ولدى التـائه ؟ أنت بعينـه ٠٠ وهـذه صورتك ٠

ثقيل الرأس ٠ يطارده النوم ٠٠ يقول ٠٠

ـ يامرأة اذهبى ٠٠ أنا لا أعـرف أحدا فى هذا البلد ٠٠ لقد جئت الى هنا خطأ ٠٠ كان يجب أن أهبط فى بلدى البعيد ٠ لكن النوم غلبنى ٠

قالت فى حزن ٠٠

ـ لكنك تشبهه تماما ٠

تثائب وغفى ٠٠ قالت ٠٠

ـ ما اسم أمك ؟

ـ أمى ‥ توفيت منذ أعوام بعيدة ‥

ـ لكنك تشبه ولدى كل الشبه ‥؟

صمتت ‥ قالت محدقة فيه ‥

ـ اذن ‥ أرينى فخذك الشمال ‥

فغر فاه ‥ قالت ‥

ـ نعم ‥ لاتخجل منى ‥ على وركه الشمال قطعة كبد ‥ وحمه ‥

أسرع ناهضا وتسلق الرف ‥ تمدد فوقه ونام ٠

تطلعت الى شاب آخر ‥ كلهم يشبهونه ‥ كان يدخن ‥ يتطلع الى الظلمة الراكدة بالخارج ‥ قالت ‥

ـ ولدى محمود ‥

التفت اليها الشاب ٠ نفث دخانه فى صمت ‥ مدت يديها وسحبته ٠

ـ لاتقول انت أيضا انك لست ولدى ‥ تعالى انهض ‥

خلص نفسه منها وسعل ٠٠ قالت :

ـ لدى طعـــام كثير بالبيت ٠٠ فــراشا نظيفا ٠٠ الحجرات البراح تدعوك

ـ أعوذ بالله ماذا تقولين ياامرأة ؟ لا أريد خبلا أكثر مما أملكَ ٠

اذهبى ودعينى فى حالى ٠٠

بكت ٠٠ توسلت ٠٠ اتسعت حدقتاها والفم عن أسنان رخامية ٠٠ أخرجت صورته ٠٠ قالت ٠٠

ـ هاهو ٠٠ أنت ٠٠ أنت تعالى ٠٠ انه يشــبهك تماما ٠٠

كانت تدنو منه حين كان ينكمش فى زاوية الكرسى ملتصقا بجدار العربة ٠٠

ـ لماذا تنكروننى جميعا ٠٠؟ أين أجده اذن ؟ أنا أمك ٠٠ صدقنى ٠٠

ـ أمى لم تبلغ باب المحطــة الخـــارجى بعــد ٠٠ أوصلتنى وعادت ٠٠ ثم أمى امرأة صغيرة ومتزوجة من رجل آخر غير أبى ٠٠

وكف أحدهم تربت فوق المنكب المتهالك .. قال صوت . بحنو ..

ـ تعالى ياسيدتى .. لقد رأيت ولدك .

طويل كان المتحدث ـ كث الشارب متساو القامة . قال ..

ـ انى رأيته ..

حدقت فيه ..

ـ هو مثلك أنت أيضا ..

والشفتان .. فيما تحت الشارب .. مدينة مثقوبة .. مهدمة القلب والاطراف .. والمرأة تسمع الصوت .

ـ نعم .. كل من أراد البقاء هناك زرعوا فى الأرض ..

والدمع يجف فى المآقى .. تتلاشى تجاعيد الوجه .. تتكون فيه فرحة التأمل .. قالت ..

ـ رأيته .؟ أنت تصدقنى ؟ أنت تعرفه .؟

ـ كان فى كل الأمكنة · فى المدينة كان ·· يزحزح الساتر الترابى القوى ··

يحتضـــن التراب والدم والأفرولات ·· ويدفـــع الدبابة بساعده المقتول ·· مثل الصورة تماما هو ·· طيبا وقويا ·· مزروعا فى سفح وشكل عتاقه ·· على البيــوت المهــدمة ·· أعلى آبــواب مصــانع الســماد والزيتية ··

·· يجىء ·· تــراه ·· يبعثه الذهن · الذاكـــرة الصوت ·· يتسع المكان والابتسامة تتباعد الجــدران وتتسع وتكتظ فيها المقاعد ·· تتواحد رؤوس الناظرين ·· يملأون النوافذ والشوارع ·· يتطلعون الى البطل الواقف على رؤوسهم ·· مختالا تنفسح الأرض ·· تأتى المزارع ·· تتكاثف الأضــواء ·· شـــاردة كانت · تقول ··

ـ شامخا ·· جاوز رأسه النجوم ··

والصوت يجىء عبر الأضواء ·· يفسح فى الأزقة الخطى ··

ـ نعم ·· لقد ترقى وبلغ رأسه الصقر ··

تأخذها الشوارع ·· تموج فى الناس ·· يأتيها الصوت ··

ـ «لكنه سوف يعود ·· انهم يطلقون الأسرى ـ سوف يجىء ·· انه مزروع فى كل الأمكنة رأيته هناك »

ـ سوف يعود ·· سوف يعود ·· حين يحل الأمن ويشمل المكان ··

فسيحة الأرض ·· تثبت تحت الشمس الخضرة ··

تهيم ·· تنشر الضحكات على المارة ·· تتصدر بهامتها هياكل البيوت ·· يشرئب رأسها الأشيب فوق السطوح والطرق والجدران ··

« كان ·· فوق الجبال كان · أعلى أبواب مصانع السماد ·· كان ··»

فى الحارة ·· كانت تخرج من حقيبتها قطع الحلوى ·· تمنع الرجال المارقين والجيران وفى الشارع ·· حيث المسكن ·· يتطلعون فى صمت ·· تصيح وليسمع كل الناس أنه سوف يعود ··

تحادث العيال · ثم تهيم فى الذاكرة ·· تزيح من فوقها الغيوم ·· تستخرج هامته الشامخة يقف فى

منتصف الصالة •• يحل الأمن حينا •• يســود المكان والقلب السكينة •• رويدا ـ يستتب السلام ••

قالت • لكل من وطئت أقدامها أماكنهم عند سؤالها عما اذا كان حيا •• يشيحون برؤوسهم لايعلمون ـ ولو علموا لقالوا ـ لكنها •• تؤكد ـ انه ســوف يعود •• زميل له قال لى •• انه سيجىء ••

والنسوة استفسرن عند أبواب البيوت والشرفات والنوافذ •• باكيات على حلول الولد مكان الذهن •• قالت ••

ـ سوف يجىء •• قال لى انه مزروع فى كل الأمكنة •• يعنى آنه سوف يجىء •• يولين الوجــوه • يخفين الدموع • أين التى كانت من الجمال والصحة والمروءة • امرأة •؟ يرغبها من رجال الحى الأعزاء منهم والأقوياء والصالحون : زوجة يعوضونها سنوات الحزن والتعب بعد موت الزوج •• يودون أن يحملوا عنها عبء الطفلين •• يملأون شقتها القاحلة •• يعمرون حياتها ـ لكنها تقول وهى تتطلع فى البيوت ••

ـ لكنه سوف يعود •• انى آنتظره •• قال انه سيجىء ومعه أخوه ••

تسير ·· تنطلق وتحادث فى الحارة الناس والعيال وهياكل البيوت ··

« سوف تجدينه مزروعا فوق الأرض·· فى الجدران ·· فى قلوب الرجال» ·

ـ انى أنتظره ـ لأنه سوف يعود ·

فى الصبح المعلق فى ثنايا الشعر الليفى المتموج فى الرأس المصلوب العنق ·

أعـلا البدن الواهيـة عظامه المتماسكه بين الريح وانتظار مجىء الغائب فوق طـرف رصيف أمام البيت الموحش وحده ··

تكومت ·· تنتفض ·· باد صقيع الليل الفائت فى الثوب البالى ·· وحين داعبت الشمس بدنها ·· وأعين النيـام وانفـرطت من الدهاليز أجسـادهم ·· كانت تراقبهم زائغة النظرات ·· كانوا يطلون من الشرفات ·· أقزاما هم يجيئون ·

كان بعضهم يحمل سلما خشبيا ··ركنوه على الحائط المقابل لها تماما ··»

«رأيته هناك ــ سوف يعود ··» انى أنتظره ··

صعد أحد حاملى السلم ·· «فوق أبواب المصانع ·· الجدران ··» نزع لافتة الشارع القديمة ·· امتدت يد زميل له بلافتة أخـرى جـديدة «وفى القلوب والناس مزروعا كان»

سمرت اللافتة فوق الحائط ·· حين هبط الرجل من فوق السلم ·

انتفضت المرأة قائمـة ·· غرست عينيها فى قلب اللافتة الجديدة ·· تسلقت السلم الخشبى ·· حدقت فى اللوحة الملتصق بها الوجه الضاحك ·

ــ راحت تلتفت الى الشارع والمارة والجيران ·· تصرخ · سوف يجىء · تمسح بكم ثوبها بريق اللوحة المعدنية الخضراء ·· تشير اليها · تصرخ ··

ــ هاهو ولدى ــ هذا ولدى ·· قال لى زميله انه سيعود ·· وهذا هو اسمه ·· «محمود خالد الطيب» ·

هبطت السلم ــ قعدت على الرصيف ــ تحدق فى اللافتة ·

قربان للبطون والريح

١ ـ الخوف

راقد كان •• وغشاوة الضباب فيما وراء الأجفان •• تختلق دوائر صفراء تتسع وتضيق •• مبقورة الجوف ومترجرجة تحاول الالتئام •• بداخلها الرأس الفائر •• وتتلاشى •• فى جوف المنزل كان يصغى لما يتسارع فى جنبات الرأس ••

متواجد هو فى قاع البحر •• نوافذ بيته المفتوحة مكتولة الأنفاس •• اطارات الحائط تحمل صورا لزفافه وزوجه وذكرى مازالت تملأ ذهنه بأحلى الايام ••

تبسم الزوج من خلف مكانه •• تهز الرأس سعادة فى همس ••

« ياصياد •• انى أمنحك الدفء والحب •• كل ما أملك لى أعطيك اياه •• أعد لك من نولى نسيجا يقيك البحر •• والقلب يطويك حبا » •

متهدج هذا الصوت ‥ رنين ونداء فى أذنيه ‥ والبحر الهائج يدعوه . والصوت الصادر من داخل نفسه تحت زبالة الضوء الغافى يرجوه ‥ رجال رفاق فى قاع القارب نياما كانوا ‥ يشيدون به ‥ يشيرون اليه ويقفون ليمنع فيهم مايصنع ‥ يقومون من عزيمته ‥ يستنهضونه للابحار . فهناك بطون تتصارع فيها ريح الجوع وبيوت يدخلها البرد القارس من كل مكان ‥

وساعده المفتول بنبض الاخوة والحنان والرجولة ، يحثه ويرتفع فوق رأسه كأنه يدفع فكرة الرجوع فيما اعتزم عليه ووعد الرفاق به أن يكون ‥ سوف يكون والا ما تدفق الدم فى العروق ‥ تعدت كلمات الزوج تجاويف الرأس الراكدة بعيدا عن الذاكرة التى كانت أغلب رواسبها تموج . تطفو . وتبـدو مافيها للعين فوق الحائط ‥ سباق . تحدى . رزق . مد . جزر خوض البحر . مع صيادين أكثرهم تفاهة يكن للريس سعد كراهية لعدم قبوله اياه للعمل معه ‥ وأغلبهم تعقلا يكن له أمنيـة الموت والاسـتيلاء عـلى منطقـة الرزق الوافر ‥

« يأملون فيك خـيرا ‥ فى الحصـول على اللقمة

المأمونة والمضمونة ٠٠ نعم ٠ والحق يتبع وكيف لا ؟٠٠
ورجال مركز التوزيع يعتمدون عليك ٠٠؟

اعتدل فى رقدته ٠٠ قالت الزوجة :

ـ ريس سعد ٠ ألا تقبل منى رجاء ؟

مرفأ الدفء بعد الابحار ٠٠ نظر اليها واقترب ٠
قال :

ـ لاتخافى ٠٠

ـ ولكنى ٠٠

ـ الرجال بيوت وبطون ٠

ـ لكنهم لايعلمون عن هذه الطلعة أكثر مما نعلم ٠

ـ فى المركز ناس ينتظرون عودتنا ٠

ـ لكنهم لايعرفون مانعرف ٠٠

ـ ماذا تقصدين ٠٠؟

ـ هـذه الطلعة ٠٠ انى أعـرفك ٠٠ انها ليست
للصيد ٠

ـ بل لم ٠٠؟

— المناقشة

— كيف عرفت ..؟

— ريس سعد .. اننى زوجتك . أعرف مايدور بنفسك .. أحس بنبض قلبك وعروقك .. انى أمنحك القوة والحب .. ليس لتنافس بهما الآخرين .

— يبـدأون دائمـا .. يـودون الحصـول عـلى منطقتى ..

— ليس فى البحر .. تلك قوة .. جبروت ..

— الرجال أكثر قوة .

— ...... الرفاق ..؟

— انهم لايعرفون .. ثم ليس للانسان عمران .. أنه عمر واحد ..

— ولم تلق بنفسك لليم وأنت حر طليق ؟.. تعرف انك ظلى .. وهذه الحياة .. والدم .. ضمها حين التقت بصدره ..

— وتعرفين انك هـذه النبضات والخطوات ودعاء السماء فى أوقات شـدة البحر .. لكنه التحـدى لملم أشياؤه الخاصة .. حدقت فيه بحنو ..

« ملاحى الحبيب ·· رفيقى العجوز الضاحك أبدا·
الراقص أحيانا ·· ذو الشارب الكث والشعر المتساو
·· أستحلفك الله · ألا تخوض البحر اليـوم · قلبى
يأكلنى وأليم عظيم ··»

هائجـة هى الريح ·· تذر بكائنات الشـط ··
ترفع أدوات الصيد من فوق الرمل وتلقى برذاذ الموج
الهادر وسـط الشارع وجـدران البيوت حتى انصرف
الباعة من هناك وكادت تمحو قوارب الصحاب «فلا تذهب
·· امكث معنا اليوم» ·

تشتد الريح ··

ـ انى أشعر بالخوف والوهن ·· مريضة أنا يامن
تحيط عالمى بالحب ·· دع هذا العالم يمكث فى كنفك·
يبقى عند ظلك الحنون ·· »

تسكن الريح قليلا ·· «عد» تسكن ··

٢ ـ ···· الابحار

خلف ضباب البحر توارت البيوت والقباب ·· مآذن
أبى العباس الشـاهقة ·· تلاشت نخيلات تراخت فوق
الشط ·· كانت تضىء المكان بلونهـا الأخضر وتبعث

البهجة فى قلوب المقبلين على الصلاة حين غابت المدينة عن العيون ·· كانت السماء ·· والبحر ·· تتمايل فوقه المراكب فى صف واحد بعرض البحر ·· تحمل الرجال والشبك ··

رجال ·· خاضوا اليم كثيرا ·· غضبانا أو هادئا ·· سيان الأمر لديهم ·· لم يكن يساورهم صمت الرهبة أو قلق يزاحم الصدور والقلوب على من خلفوهم فى المدينة من بيوت وعيال ··

ولكن الآن ·· داخلهم الخوف ·· أحيط بهم ·· وشعور بخطر دان ·

أراد أحد الرجال أن يطمئن قلبه · قال للريس سعد :

– ألا ترى شيئا فى البحر ؟

قال رجل آخر توتر بيده الشبك :

– نعم ·· هناك خطر يحيق بنا ·

وعينا الريس سعد فى القوارب تجول ·· همس فى نفسه :

ـ أقالت امرأتى حقا ••؟ راودهم قلق مبهم ••
تحير القريبون منه فيما قال ••

تحت السحب المتحركة •• كانت المراكب تتقارب وتضم بعضها بعضا وتتلاقى فى منطقة واحدة ••

٣ ـ القربان

أوغلوا فى اليم •• تهادت المراكب وبان فى العيون القلق •• بدأت كتل السحب تهرب نحو الضباب وتختفى •• والشمس فوق الرؤوس تجىء وتغدو ••

أوجس الريس سعد خيفة •• اضطرب من حوله الرفاق •• تدانت مراكبهم أكثر •• من ألقى الشباك ضمه أو توقف عن فرده •

انغلق الضباب عن مراكب أخرى •• بدت وجوه شرهة لوحتها الشمس حتى صارت محترقة ومسودة •• اعتلت أجساما ضخمها الشر والجبروت •• تعلو مراكب حاذتت أشرعتها السماء ••

من حولهم كانت آتية ببطء وثقة •• توقفت قريبا من الرفاق •• ضحكوا • بلغت ضحكاتهم القلوب والاذان والآفاق •• اشتد الريس سعد ألما وقوة ••

«ينشرون الفساد ..؟ جاءوا يحتلون هذه الناحية ..؟ فليفعلوا مايحلوا لهم .. قليلون نحن .. ولكن سوف نهزمهم باذن الله .. ويكون لنا الجولة والمنطقة ..»

تقدمت مركب ضخمة من منتصف المنطقة .. تقدم الريس سعد .. تحفز الرفاق رغم الارتجاف .. قال رجل ضخم ..

— هانحن وجها لوجه ياريس سعد ..؟

قال الريس سعد بقوة :

— نعم .. ونحن لن نترك مكان اطعامنا وأولادنا .

— نعم ياريس سعد .. حيث لا وزن للعتاب أو المشاجرة .

— وحيث يكون الانسان .. الانسان ..

— وحيث الموت يساوى الحياة ..

— والرزق يساوى البقاء .

— أمستعد أنت للحفاظ على الرزق ..؟

— وعلى الرجال والعيال وشرف الكلمة عند رؤساء مركز التوزيع .

ضحك الرجل الضخم ٠٠ ضحك رجاله بشراهة ٠٠

قال :

ــ وماذا لو عدتم بدون رزق ٠٠؟

ــ نحارب من أجل الرزق ٠٠؟

نظر الرجل الضخم خلفه وأشار باحضار شيئا ٠٠ غابت أجسام رجاله فى أسفل المركب ٠٠ صعد بزوج الريس سعد ٠٠ مكبلة الحلق واليدين ٠٠ زاغت أبصار الرفاق ٠٠ شدهت الحلوق وصدرت عنهم عبارات الدهشة غير الواعية ولفهم صمت أشبه بصمت التسليم ٠٠

توقف الريس سعد عن الحركة ٠٠ فقدت لديه الكلمات ٠٠ حين أفاق ٠ كظم مقته وجحظت عيناه وظل وقتا ينظر بدهشة ٠٠ قال الرجل الضخم :

ــ ماذا قلت لو ألقينا بهذه المرأة الرائعة قربانا للبحر ٠٠؟

وجاءت كل زوج من زوجات الرفاق ٠٠ غشت العقول والأذهان ٠٠ تراقصت في العيون فكوا عنها الوثاق ٠٠ نظرت الى الزوج ٠٠ «يستولون على الجزء الأكبر من حياته» ٠٠

قال الرجل الضخم :

ـ اذهبى اليه ٠٠ انه زوجك الذى يحبك ٠

لفها الوجوم ٠٠ نظر الرفاق ٠ أيأخذونها ويعودون بلا رصيد ؟ لكن ٠٠ تجمد الريس سعد عن الحركة تماما ٠٠ أيترك هؤلاء يستولون على الرزق عنوة ؟٠٠ التقت نظـرات الرفاق ٠٠ والبيوت والزوجات تمـلأ العيون والاذهان ٠٠ تراودهم فكرة القوة ٠٠ آتضيع امـرأة رئيسهم ؟٠٠ أم يعودون بها ؟

قال الرجل الضخم :

ـ نعلم جميعا أن امرأتك مرفأ راحتك ولذلك جئنا بها لك ٠

أيقتحم المكان ويفتح الرفاق طـريق الرزق ٠٠؟ ينظرون اليه ٠٠ حيرى نظراتهم ٠٠ أيفقد ماورثوه فيه من قوة وثقة ؟٠٠ أينتشل زوجه ؟٠

نظرت اليه ٠٠ الرجال من خلفه تقهقرت مراكبهم ٠٠

« وبعد حين من الزمان ٠٠ تفتح النوافذ ويظهرون النسوة ٠٠ ينظرون ٠٠ تبـدى الرذيلة منهن العفاف

والفضيلة ٠٠ يلوكن الحكاية ٠٠ هذه ماأخذها الرجال وأبحروا ٠٠

هذه التى كانت ٠٠ وغدا ٠٠ عندما يستقر بهم المقام ٠٠ سيقول الذين يبقون فى المدينـة ٠٠ راودته امرأته عن عمله فآثرها واستجاب ٠٠

وفى المقاهى حين يحلو القعود عند المساء وفى مركز التوزيع ٠٠ سيحركون ألسنتهم ورؤوسهم والاصابع وفى الاسواق ويهمسون ٠٠ هذا ماتبقى لامرأته ٠٠»

التقت أعينهمـا ٠٠ التفت هـو الى الرفاق الذين تراجعوا خلفا ٠٠

العيال فى البيوت والبيوت فى المدينة الواسعة التى تحمل له صفة الريس سعد ٠٠٠ نظراته الجـامدة فى الزوج والرجل الضخم ٠٠ تراصت أيدى الرفاق فوق المجاديف ٠٠ اهتزت فى الريح الأشرعة ٠٠ وترجرجت المراكب ٠٠ طوقته ضحكاتهم الساخرة ٠٠ واقعة الهزيمة ولا محالة ٠٠ انخفضت عينـا المرأة ٠٠ تدلت رؤوس الرفاق ٠٠ تداعت أجساد بعضهم ٠٠ مـلأت نظـرات الريس سعد الزوج ٠٠ فلتكتبوا كثيرا ولتكن الجولة لنا ٠٠ ــ تعال وخذ امرأتك ٠٠ جميلة هى ٠٠ لم يمسها

انس ·· فى الضلوع مصلوبة الكلمات ·· كانت الزوجة تتقدم من قمة المركب ·· عيناها فى الماء ·· «غدا ·· يطفو البحر ·· وتذهب أجزائى لكل البطون» ارتفعت رؤوس الرفاق ·· دار البحر فى رأس الريس سعد ·· حدق الرجل الضخم فى جسد المرأة المرتفع فوق حـافة المركب ·· تراجعوا قليلا ·· توارت ضحكات رجاله وتراجعوا ·· تقدم الرفاق حين تصلب رئيسهم واقفـا ·· أحاطوا به ينظرون ·· يتراجع الرجل الضخم ·· اتسعت حدقتاه وتركزت فوق الزوجة ·· يتراجعون ·· بدأ الجسد يهتز بينما يتقدم الرفاق وتتراجع المراكب الأخرى ويدور الجسد هابطا الى الماء ··

الميتة والعنق وأكتاف الراحلين

يجيئون من بداية الشـــارع ·· يحملون لفـــافاتهم ويسرعون ·· يمسحون عن عيونهم نعاس الليل الفائت بأصابع معروقة ·· يتثاءبون ويدعكون محاجر جفون تصارع التعب ·· يمضون فى الأرض نظراتهم والأقدام تتزاحم متسابقة ·· ملتوية كانت أو عرجاء حافية ·· بنطلونية أو قفطانية أو · سيقان عجفاء هدها القهر والقروح وتوالى الليـــالى عبر الداوريات · وتحـــالف النظرات ـ ، الصلعاء فى كل مكان تترقب الرجل الآتى، ودوار الرأس عمن يجىء ويرفعها على عرش بيته ·· زوجة ·· ولايجىء ··

وتتسابق الأقدام ·· تشد بعضـــها نحـــو أبواب المصنع الكبير التى تشبه حلوق الحيتان تسحق المقبلين ·· يتطاحنون فى جوفه وينزفون بداخله قواهم وعرقهم ويخرجون ·· عالقة نتف النسيج بشعورهم وأجفانهم المتقرحة وأهدابهم المتصارعة وأقدامهم تغذ السير اعياء وقرفا ··

••• يجيئون من أقصى المدينة الى بداية الشارع ••• والدق فى القلب يتصاعد •• خوفا وطمعا فى بلوغ مأواه السطحى الأمين •• تتصادم أهدابه • جاف حلقه • يزحف ••

ثلاثة كانوا يحملون جثة •• تطايرت من حولهم حدقات القوم •• متذمرين •• محاجر العيون صفراء ضجرة تبلغ من حولهم الآفاق •• تأففا ••

•• « فليذهبوا به من هذه البقعة من الأرض •• والا قبعت الرائحة العفنة فى قيعان النفوس» ••

– ١ –

الذاكرة تفرط عنقودها الجاف

« سطوح البيوت •• أطباق طائرة •• وما أدراكم ما الاطباق الطائرة •• خبز وبصل وثوم غائرة •• آه •• شاخ زمن الشباب ، وأهملوا جثتى •• كانت • تسكن تلافيف الرأس •• حين تخرج من بين النار الموقدة • تشد الأوتار فى العيون •• وتكون فى برد الليل القارص • دفئا وسكونا •• ولكن ••• الى أى حين من الزمان سأبقى محمولا ؟ ••»

حين أدركهم التعب والشمس محمية تفلق الرؤوس ·· حدقوا فى المارة وأنزلوا الجثة واقتعدوا حافة الرصيف ·· آسفلت يبدو ·· تملؤه آقدام متوافدة ·· يحثون الخطى صوب الشارع الممتد ·· يتطلعون فى تقزز ويمضون ··

عينا الأول فى وجه الثالث يسأله عما يجب أن يكون بصر الثانى فى الجثمان الملقى · ارتكن الحائط وأخفى وجهه بين وركيه ·· والآخران يراقبان المارة الذين تجاهلوا مايرون ·· فالموت فى الابصار والرؤوس هدفها الامام · صوت الشاب الأول نحيل ·· ـ والحل ؟ لقد أدركنى التعب ··؟!

قنط وجه الثانى وقال ··

ـ قلت لك نتركه وشأنه ·· مالنا نحن ؟! لعل أحدهم يقوم بدفنه ··

ـ لو كنت أعلم بأنى سأتعب هكذا · ماكنت حملت نفسى مسئولية حمله ··

ـ هانحن كما ترى ·· لقد أنهك قواى تماما ·· لن أقوى الليلة على العمل فى الشركة ·

ـ حقيقة ٠٠ لقد نفذ مافى جوفى ٠٠ لم أعد قادرا على حمل نفسى ٠٠

٠ والصمت غلاف ٠٠ والشمس تجمع خيوطها من أركان المدينة ٠ تلملم بقاياها زاحفة الى ماوراء البيوت البعيدة ٠٠ والناس تقل أقدامهم من فوق الأرض التى تتصاعد أبخرتها ٠٠ والحجرة الآمنة كامنة فى الذهن ٠٠ فراشها القليل والدفىء وبقايا الطعام وباب ٠٠ ماكينات الغزل تدور برأسه ٠ البالات الثقيلة تقوس ظهره وتحنيه ٠٠ صوت الملاحظ فى أذنه ينهره بالسرعة ٠٠ تمتد قدماه فوق طرف الرصيف وكأنه يمتطى الفراش قرر الأول فى نفسه أن ينطلق وصديقه الثالث شاردا فى تأمل غريب ٠٠ قال ٠٠

ـ والحل ياصديقى والليل دان ؟٠٠

ارتفع الرأس الشارد عن الصدر ونظر الى النائم ٠ ثم الى الذين أسرعوا ٠٠

ـ نفعل مايفعلون ٠٠

— ٢ —

الذاكرة ٠٠ أرخنة نشوى

مضيت يازمن الموائد والأكواب وغابت فى ثناياك لذائذ المآكل وحلو الشراب ٠ فأين منى راقصات الليل والصـقيع ودفء أنفـاس الصـحاب حـول جمـرات النار ؟!

خادمكم الأمين ونافخ الموقد المصطلى فى الليل الغول ومن تجاوز بكم أطراف الدهاليز عند كل فجر ٠٠ يعانى ٠٠ يدنو من شفا حفرته الى القاع ؟٠ أفلا تسألون ٠٠؟

حين أفاق المرتكن من غفوته القصيرة — كالحالم كان — تتطلع عيناه لما حوله ٠٠ رصيف خال ٠٠ أقدام تنطلق فى غدو ورواح ٠٠ تذكر أنهم يسرعون مثلما كانوا من قبلهم ٠٠ ويذكر أنه غفـا قليلا من الزمان فارتاح ٠٠ وهناك بجانبه جثة كالظل ٠٠

اقترب طفل ٠ نظر وضحك وجرى ٠٠ انتفض رجل يحمل كيسا وأرغفة ٠٠ نفر مشمئزا وانطلق قال رجل فى الدور الأعلى من الجدار ٠٠

— انت أيها الرجل ٠٠

فى أودية العيش يموج الرأس .. فى أقبية الخنق حتى فى الموت أمــــلا .. كان الصــوت الأعــلى ينزف نفسه .

ــ أنت يامن هناك ..؟

وسوف يحمله وحده .. ساعد الصوت الصادر من أعلى صوت امرأة ..

ــ أنت أيها الأطرش .. أنت .

ارتفــع الرأس .. وســياخ الشرفة تتــداخل فى الأرداف تحت الثوب القانى اللون .. تحيط الجسدين المنتفخين ..

ــ احمل هذا الشىء . وامض من هذا الشارع ..

ــ ولكن ...

ــ ليس هناك وقت للكن هذه .. كفانا قرف ..

حين جن الليل .. تكاثفت فى الحارة الظلمة .. وتفاقم وهج المدينــة وبهر عينيه .. حــاملات الموتى تسرع .. عربات تصارع الصوت واللمح .. تقتل فيها الأفئدة .. تمحو ما أقــرته الذاكرات لحق الجســد .. تتداخل الضجة والغوغاء وتصرخ الابواق وقوته أرهقها

الحمــل الثقيل ·· ألقى حمله جانبا من جــدار وتلفت فيما حوله ·· سمع رجلا يقول كالآمر :

ــ هذه منطقة عبور ·· أحمــل ماتبيع بعيدا وإلا خالفناك على ذلك ··

·· خاوية الجيوب · ومداخل الامعــاء من الجوف تغشى العيون سحابة تتراقص فيها المدينة · والظلمة فى العينين ·· تهتز نبرات منظم المرور ··

ــ أنت أيها الحمار ·· سأحرر لك مخالفة اشــغال طريق ··

تناول ذراعى الجثة ·· حاول أن يجره ·· ثقيلا ·· انخلعت الأكمام وارتفع القميص حتى العنق ·· بدا سطح جوفه المكور ·· استدار وبدأ يسحبه من قدميه ·· مثقوب الحذائين وبلا جوارب ·· يلتفت ·· يعرق· يسحبه حينا ويتوقف أحيانا ·· تفاقمت الظلمة حين احتواه ، الزقاق ·· توقف عن الحركة ·· حوله سكون مخيف ·· فليفعــل مايفعلون وليحصــل الركب ·· ان يتركه وليلحق بما يلحقون ويحصل على جزء ممايحصلون فالجوف خاو والليل غول والريح كالسياط فى العظام وربما يهبط المطر ·· الأشجار تخفى مايشبه الواقفين

·· لكنه ·· ليفعل · وليكن ، هو وجوفه ومأواه الآمن ·· جاوره جدار قريب ·· حث الخطى الى الوراء ·· فليهرب ·· مضطربا قلقا ·· قال شرطى بزغ من بين الظلمة :

ـ قف أيها اللص ··

خارت قواه ··

ـ ما الذى تحمله ؟

كان يدنو ·· حين أبصرته الجثة قال ··

ـ قتلته وتريد تركه هنـا ؟ من يحمله عنك أيهـا القاتل ؟ أأحمله أنا ؟!

ـ لكنه ميت ·· جثة · هكذا وجدناه ··

ـ ها ··؟! أخوك هو ؟!··

ـ لا ··

ـ أبوك ··؟

ـ لا ··

ـ من يكون اذن ··؟

ـ وجدته فى الطـريق أثناء خـروجى من العمل صباحا ٠٠ حملته وآخران تركاه لى وهربا ٠٠

واهن صوت الشرطى يقول ٠٠

ـ هربا ٠٠؟ احمله اذن واغرب عن وجهى ٠٠ امض قبـل أن يأتى حكمدار الداورية ويقبض عليك بتهمة احراز أشياء غير مستباح حملها الآن ٠٠ اذهب ٠٠

تعب ٠٠ محطم ٠ ثقيلا حمله ٠٠ وعين الشرطى فى نفس الجثة ٠٠

ـ قل لى ٠ أين وجدتها ؟

ـ فى الجانب الشمالى من المدينة ٠٠

ـ هم اذن ٠٠ ألا تعرفه ؟

ـ أبدا ٠٠ ملقية كانت فوق رصيف مظلم ٠٠

ـ وسرقتها ؟!٠٠

اهتز البدن الضامر خوفا ٠

ـ أنا لم أسرقها ٠٠ بل حملتها بدافع الرأفة ٠٠

ـ بدافع الانسانية !! لم لاتقول بدافع البحث عن جثة ؟!

ارتجف البدن الواهن . عقل لسانه دهشة والشرطى يقول ..

– خاصة وأن كثيرا من الموتى قد اختفت جثثهم . جثة امرأة .. جثتان لرجلين .. غير جثث الأطفال ..

– ولكن .. ولكن .. لكن .

– ولكن سوف أدعك وجثتك تحت شرط واحد .

– شرط ؟!

– نعم .. شرط .. ألا تعرف الشروط ؟ ألست من هذا الزمان أنت ؟.. المهم لو قابلك حكمدار الدورية بحملك هذا فقل له اننى اعترضتك وقمت نحوك باتخاذ اللازم .. ثم قمت ، أنت بالهرب منى بغرض دفن والدك .. أفاهم أنت ..؟

– ولم لاتذهب بى الى القسم .. ؟

– بدنى متعب من عمل النهار .. أود لو أنام قليلا .. قل انه أبوك وتود دفنه ..

حمل جثته متأوها وسار ..

تمتمات ذاكرة مخدرة ..

أود لو أنام .. أن يقتل النوم فى رأسى الألم .. لن أجتاز بكم مـرافىء الأمان .. فانى أجتر مواجعى بعد نفاد ليلكم الدافىء .. آه .. انشـد النوم لسحق الندم والخوف . ينتابنى شعور بالضحك والبكاء حين تنفضون من حولى .. تحدقنى نظراتكم فى حذر ..

سوف أبلغ سكينتى .. سـيطول هـدوئى ويمتد رقادى .. سوف تحملنى مقاعدكم حين أرصها صفا بعد رحيلكم وقبيل الصـبح فى الركن البعيد من المقهى . وأنام ..

يمتد الطريق . والظلمة والتعب .. سار بحمله فوق الرصيف .. بصره فيمـا تحت الرصيف والنمل يرحل والجوف ينعى خواءه باكيا .. والنمل يحمل المؤن قاصدا جحوره فالليل بلغ أشده .. والرأس قد توقفت دواخله .. كائناته الجامدة فى حجرته السطحية تنتظر مجيئه .. أمنية الخلاص .. لم حمل نفسه ما لا طاقة لها به ..؟ كيفية بلوغ مأواه انشودة النفس .. اللجوء

الى أشيائه الساكنة ·· برجا عاجيا ·· آمل يعلو الى السماء ·· والنمل يتبدد ويبلغ منتهاه ··

يمر بعضهم فيما بين الرصيف والآخر وأسفله متباعدين ·· يسابقون آقدامهم فى توتر ·· عجلات يفسح لها الطريق الخاوى متسعا وكأن بهم خوفا ·· ويمضون ··

— ٤ —

زحف الغشاوة فى انبلاج الذاكرة

الحارات أفيون ·· طرقات أسفلتية وبيوت عرجاء ووجوه أفيون ·· أشجار يلفها الصمت الحزين تتساقط أوراقها فى انتشار الريح عند المساء أفيون ·· ورجال المقهى يرتجلون — أعينهم فى متعرجات أجساد الملاءات اللف · نسوة يمضغن فراغاً عابرات هن ·· أفيون ·· قمر حوطته غمامات شاحبة تغشاه من حين لحين يشبه الافيون ·· وعيال الحارات الضيقة يحشون الرأس زعيقا وصراخا · ضحكات أفيون ·· أفيون ·· ياأفيون ··

الجندى اللابس مدنى صديقى ·· يعرف أنى أوزع طلبات الناس والرواد بالخارج ·· أقبل بصحبة الرفاق ·· نقبوا فى مياه «الجوزات» اشتموا روائح «الحجارة»

والأفواه وهاجموا ركنكم الأمين وداعبوا أكتافكم بحب وشوق وسخرية وقالوا انهم سوف يذهبون بكم فى نزهة بالســاحل حيث الريح والبرد لأنكم تنســون أنفسكم وأحوالكم وأحوال من حولكم ·· ولكن صديقى ·· لم يعرف أنه بذلك يقبض على نشــوة القلب فى ليــلات الصقيع والرجفة محددا نهاية عذابى بصحوى ·· ماكنت أدرى أنك آت وبأنك هابط بباب مقهاى ومغلقة بالخاتم الأحمر · ملقيا بى فى ليل بارد بلا أفيون ··

داعب رأسه المنحنى صوت يقول ··

ـ هذا للبيع ؟··

اقترب منــه رجــل بدين الجسد ·· منفوخا ·· تطلع اليه :

ـ من ؟

بضة أصابعه المشيرة صوب الجثة ··

ـ هذه ···

فرج فاه مصعوقا ··

ـ أجساد البشر تباع ··؟

ضحك البدين المكور وقال ..

- ألا تعلم بما يحدث حولك ؟.

ياصديقى كل شىء يباع ويشترى الآن .. أنائم أنت ؟!

- ولكنى لم أسمع عن ذلك من قبل ..

انحنى رأس البدين الى اذن الجالس وهمس بسرعة:

- أنت قـاتله ؟.. ألست أنت قـاتله ؟.. قـل ولا تخف ..

- أنا لم أقتله . ولا أعلم عن القتل شيئا ..

- اذن لماذا تحمله ؟..

- وجدته وحيدا . مسكينا .. فكرت فى دفنه ..

كان البدين يساوم .. تحرك وقال بجدية :

- عموما .. بيعه أفضل لك .. سوف أشتريه منك .. هذا ماكنت أبحث عنه .. هيكل عظمى .

- ولكنى لن أوافق على بيعه . .هذه أمانة ولابد من دفنه .

تحرك وقام واقفا ٠٠ أفى مرحلة تحاكى المنتهى المنشود هو ؟٠٠ أحقيقة مايقول هذا البدين ؟ أن يحمله عنه ٠٠ آسكران هو ؟!٠٠ هرش البدين رأسه وفكر قليلا ٠٠٠

قال :

ـ سوف أغير له ثيابه ٠٠ هذه الثياب القديمة ٠٠ وسوف ٠٠ و ٠٠

حدق فى عنق البدين بنصف عين ٠٠ غليظ ٠٠ قال : لكنه مضطرب ٠٠

ـ لايهم ٠ سوف أعثر يوما ما على أهل له وأسلمهم اياه ٠

ـ لن تجد له أهل وسوف تحمله هكذا حتى يموت منك ؟!

ـ يموت منى ؟

ـ سوف تتركه فى العراء حيث ينهشه العيال والمومسات ، أو يأتى رجال آخرون يسرقونه ، ويضاجعونه ٠٠ وان لم تفعل سوف يسرقونك أنت ويأكلونك ٠٠

تكاثرت كلمات البدين ·· حشرت فى اذنه المصغية وارتعش بدنه وحملق ·· من يكون هذا ؟ ومن أى مكان جاء ؟ قال وهو يلمح الشارع البعيد :

ـ لا ·· لن أتركه ·· لن أدعه ·· سأظل حامله حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا ··

ضحك البدين ··

ـ سوف يقضى عليك وتموت ويظل هو كما هو ··

لفحات الريح تنخر العظام ·· البيت · رغم مافيه من برودة ·· لكنه يوارى التعب وارتعاشة الليل من خواء الأوردة ··

·· والشارع هناك ·· باهرة أنواره ·· يبدون خيالات تتوارد ·· تتهافت وتمضى ·· ممثلون ·· مهرجون ·· يحملون أنفسهم بأيديهم ويسرعون ·· متاعا ولفافات ··· مشدودون الى الربكة والامتزاج ·· يتداخلون ·· يتداخلون ·· يتزاحمون ·· يصرخون ويتضاربون ·· يلتقون ثم يبتعدون مسرعين ·· استحثهم التطلع فولوا الوجوه لقبلة الربكة والتداخل · يبحثون فى الفراغ بعيون رقيبة ·· الجثة فى الذهن والظلمة تتكدس فى الرأس والعينان نصب الشارع

البالغ فيه القلب مناه ·· مأمنه السطحى يراوده ·
البدين يكشف على أطراف الجثة ·· يشعل عود ثقاب ··
ينحنى ·· يقوم ·· يحوم حول الجثة ·· الجوف
منبعج ··

·· الناس فى الطريق والحزن فى المدينة والملاهى
والحركة فى الرأس والتطلع الى بصيص النور بشدة
وصوت البدين فى آذنه يدعوه ·· وقدماه قطتان
تزحفان ···· تنشدان الهروب ··

ـ أيها الصديق ·· أين أنت ؟ تعال ·· تعال ··
لقد عدلت عن فكرتى · لن أشتريه ·· أبطلت تلك
الهواية ·· تعال ·· عد وخذ جثتك ·

ـ ٥ ـ

نزف ذاكرة تحتضر

·· ارتجف ·· تحتى الأرض تميد ·· وترتجف ··
ليلكم غريب · فيه البرودة والصمت وقتامة الأيام المقبلة
·· يمر عليه القمر مطفئا وكئيبا ·· صبحه ثقيل لايكاد
يجيء ـ كرؤوس أصحابى وجدرانهم والقضبان ··
حزينة ناسه وبلا قلب ·· يأكلون الوجوم والجهامة

ويحملون الارض ويلفون بها ويحدقون بعيون نصف مفتوحة الى فراغات ـ كانت تضاجعنى والآن ·· تميد الأرض ·· تلف البيــوت والرأس ·· مشـــحون ·· متعرجات الرصيف المرتجف بدنه ··

ليلكم أفيون لايشربه النـاس ·· قمـركم جوزة غالية الثمن ·· ضيقة مدينتكم كغابة مظلمة محشرجة الأنفاس ·· تقتلنى السعالات ·· و ··

ينطلق ·· صوت البدين يحمله الريح عبر صمت الشارع المظلم ··

ـ عد وخذ جثتك ·· عد أيها الرجل الجبان ··
كان الصوت يتخافت ويتلاشى فى اعياء باك ··

ينطلق ·· صوت البدين يحمله الريح عبر صمت الشارع المظلم ··

·· يركبــون الريح ·· ريح باردة ·· يشــقون الشوارع والبيوت ·· تصطدم فى بعضها الاجساد ·· ويمرون ·· بذوب ·· بتــداخل ·· يأتون ·· ينظـر خلفه ·· يجرون يتكاثرون فى زحمة المساء ·· كأنما كرابيج تلدغ منهم الظهور ··

هناك ٠٠ فى الخلف البعيد حيث ترتج الأرض تحت أقدام المقبلين ٠٠ والمارة ٠ كان رجل بدين متعب يحمل فوق كتفه جثة مرتفعة الجوف ٠٠ يسأل الهـاربين من وجهه المجهد العرقان عمن يعرف صاحبا لهذه الجثة ٠

انشرت بمجلة صوت الخليج الكويتية

الهجرة الى الأرض

(صبرا ٠٠٠٠٠٠٠)

لقد آن لليل أن ينجلى ٠٠ أن يرفع ردائه القاتم ٠٠ وليبدو الصبح ٠٠

(٠٠ أليس الصبح بقــريب ؟٠٠) ٠٠ والصبر كسول يتمطى أرصفة الفناء ويتمطى ٠٠

انطوى القمر فى أعماق السحب ٠٠ تداخلت الريح من ثقوب الابوآب العالية ٠٠ تزر ببقايا الدفء العالق ببدنه النحيل المرتجف ٠٠ قابعة المقاعد بزوايا المكان ٠٠ صلعاء بأن عريها ٠٠٠ مهتوكة العرض : نعوش فارغة مثبتة بالأرض ٠ والريح بالخارج تواصل ضرب السيئة وحبتا العينين الذابلتين تتحركان فى عقــارب الساعة المعلقة بالحائط منذ آلاف السنين ٠ والقلب ينشر بالذهن ذاكرة زمن المدن ٠٠ والفناء ٠٠

(حين يصحو النهار) يتثاءب (سوف آمضى من هنا ٠٠ (حين يلقى عن ظلمته) يلم ثوبه وينهض البرد فى العظام

والعقل سأم أركان الفراش والدناسة وتسلق الاضراس لجدران الحجرات ·· وعقله ·· (آن لكَ آن ترحل عن هــذه المدينة والنــاس ·· أن تدع البيــوت المرتفعة والرخام) (ولكن لم يزل هناك بقية ؟) (آن لك أن تترك المدينة ··) · (ولم لا أنتظر قليلا ؟ ··) (انتهى الزمان) ·· (ومن خلفت ورائى ؟ تتكدس الملفات والطلبات فوق الرفوف · وعند الزوايا وفى الرآس وصوت الشاكى الباكى ممسكا بطلب استرحام أن يحيا اليوم ويطعم · وصوت مالك الزمام ·· وليرجع غدا ·· وتلك ·· وتلك ·· التى تهيم نظراتها فى الأشياء الثمينة ؟ و ···· الاضراس الذين هيمنوا على مستحقاتى الشخصية ؟) ·· (اتركهم واياها ·· فلتتقلب فى المضــاجع ولتأكلهــا النار ··) ·· (سيقوم المدير بكل الآعباء) (ومن يقوم بالمضاجعة ؟) ·· (انسان أنت ولاتفهم ·· سيتكفل هو بذلك · وان لم يستطيع سيدعوك لتباشر الموضوع ··) ولكن لن أعود ·· سألقى هناك ··) (نعم لاتعد وكن هناك ··)

(تعتقد بأنى سأكون حيا ··؟)

باق فوق كرسيه والساعة تمر ولا يتحرك ··

(ولكن الى متى ؟ ·· سأمكث حينا آخــر يعاندنى

الزمن القاهر فوقى ·· أطحن ويبقى ·· متوقفا ··
ولكن سأرحل قبل مجيئهم ليأكلون) فى الزمن الذى
مضت به العناكب كان ·· لكنه الآن هنا ·· يراه قريبا
·· ويراهم ·· الاضراس ··

(وعلى المكتب أكون ·· تحيطنى أوراق القوم
والطلبات وأصوات العجزة والمرضى ومن نبذتهم الأرض
والزملاء الآخرون · مندسا فى أوراقهم ·· غارسا
منقارى الذى سحبوه منى وضحكوا على به ـ فى أطراف
الطلبات ماسحا بأصابعى وقلمى ـ ما استطعت ـ هموما
وغمامات عن سماء ملبدة فى وجوه الزملاء ·· فلأمسح ·
فبعد حين من الزمان سوف يهبط المسيح ·· ويمسح عن
وجه الأرض الكفرة والمذنبين · اما بالسيف والا أقبلوا
خاشعين ·· والآن والمسيح يمسح عن وجوه تعبة كل
الابتسامات : فلنعيدها فمن النادر أن تلفظ البناية
وجها شجبت عليه شبه ابتسامة) ·· فارغة الكراسى
قاصرة والجدران تتقارب · ورقاب قاطعى التذاكر مائلة
تحت النوافذ فى نوبة ثبات ·· والرأس بركان يغلى ··

(تراقبن ريبة الأعين المسترخية · تحت شنابر
النظارات تلاقت أنصاف العيون · هالات سوداء تتكاتف
وتتضامن ·· تضيق من حولى الجدران ·· تتزاحم

المكاتب وتضغط ولاضراس المتكاثرة بعضها فوق بعض كأنها تعد نفسها لالتهام دودة تود العيش والبقاء ولكن .. تفتيتى تحت ضغائن الضلوع وشيك الوقوع) كان ينتفش وينكمش ويلم حوله المعطف المهترىء ويدفن رأسه والريح المقبلة من أسفل الأبواب الموصدة بهم أضراس نخرها السوس .. يقفون فوق سياج النوافذ يتغامزون ويتقافزون ..

(تتغاضى أذناى عن نقيق الضفادع فى البحيرات المعكرة .. ابتلع كلماتهم وأبدوا نشوانا .. أوزع ابتساماتى .. لعلهم يراقبون عملى .. فستجد أنه يجب قبولى زميلا لهم ولمن يقبلون طلبا فى حركة طلباتهم المتوقفة .. ثم يبتسمون .. يشكرون ويبجلون ويمضون وتبقى الأشداق المنفرجة عن الاضراس والايدى متداعبة عند أطراف المكاتب ــ مقتا ــ وعما ينبغى أن يكون ويحل أنا .. قالت نظراتهم والاضراس . همسا مسموعا ..

ــ من أين هذا الموظف ؟ أية زريبة لفظته علينا .. يبدو عليه النشاط والهمة ...

تدلت أذن فوق دوسيه . قالت بسخرية وعزم :

ـ انه الجزوة • قنبلة العصر الزمنية •• احترسوا •• فلا تغرنكم طيبته هذه •

لوت فتاة بوزها استخفافا وقالت بنعومة مفتعلة :

ـ ولسوف يشعل الفتيل ••

ـ وينفجـر •••

ـ ويملأ بصوته كل الأمكنة ••

ـ كل الامكنة ؟ •• ياهه ••••

ـ ويصحو الناس •• ويقومون بضجة ضدنا ••

ـ وتتراكم الاوراق كالتلال ••

ـ ويقطعون عنا الامدادات من الفول وصنع الشاى ويرفعون رايات اليقظة عاليا ••

ـ ويحدث الطوفان ونحن الغارقون ••

ـ و ••• يعلم المدير ••

ـ ••• والخفير ••

ـ والوزير •

ـ وتتكون الضجة ويكثر اللغط ووجع الرأس •• فلنخمد الجزوة ونبطل الفتيل •• كيف ؟

القنـــاعة ورث ونيشـــان ٠٠ وآب فالح الأرض ٠
وفى زهو كان يتخايل بين الناس ٠٠
وهمس الحب كان امرأة ٠٠٠

(الطريق حلق مفتوح ٠ لسان أسفلتى جاف تهرسه اطارات العربات المجنونة والناس أنياب تسحق الارصفة وتمضـغ وتلوك الضحكات وقـدماى تتحركان و «كلمة كيف» تدفعنى للهروب من كل الوجوه عندما تطاردنى العربات ٠٠ كالأمواج هى ٠ وكعود ثقاب نصف مشتعل أكون فلأنجو ٠٠ ولألقى بجســدى بين صــدر امرأتى البللورى وحيث البيت الآمن ٠٠ وليدة هذه المدينة التى ارتضت بى زوجا ٠٠ ولكن الانياب كانت تفصـــل بين رأسينا وتبدأ الصعود فوق جدران رأسها ٠٠ وكانوا ٠٠) القاعدون

وثب من فوق كرسيه ٠٠ دار فى مساحات الفناء (٠٠ كانوا ٠) بانطــلاقة فزعة نبهت قاطعى التــذاكر للنظر واعادة الرؤوس الى الثبات فلا تبالى فالصاروخ معتوه ٠٠

(ياقعود الزمن البــائس ٠٠ آلن يصـــيبكم فرح فتقومون ؟٠٠ جوفاء رؤوسهم كحبات الباذنجان الضخمة

كانت تنظر حين الخروج .. تراقصت سطوح الدوسيهات .. حينما أقبلت منتشيا ارتفع رأس عن المكتب . شقت كلماته بلعوم غائم ..

ـ هذا هو أحمد المنتظر ..

ضحك الباقون . قال نفس الرأس .

ـ جاء يبشركم بالامن والصلاح . فاتبعوه ..

فتحت عينين حمراوين .. وحلقا مضموما ..

ـ لن نؤمن بأى نبى لايشرب البوظة ويأكل الفول ويصنع الشاى تحت قصور المكاتب ..

ارتمى الرأس بعد ذلك وأغمضت العينان ثم توقف الرأس لعارضة باروكات .. قالت :

ـ ترى . أمتزوج هو ؟ أرغب فى زوج سليم النية . نحيف البنية . لكنه يبدو أنه .. أجميلة هى ؟

ونبهت كل الرؤوس وارتفعت عن سطوح المكاتب . تقول . ويقولون ..

ـ حقـا .. أجميلة هى ؟ أكيـد .. والا ماجئت منتشيا اليوم .

(جاوزت البيت ٠٠ رأيتهم فيه ٠٠ أضراس فى الكائنات ٠ يتسلقون الجدران ٠٠ يحشرون بصـــدرها الكلمات) ٠

ـ حظوظ هذه الدنيا ٠٠ تجـد الجـربوع يملك ملكة ٠٠

(يتســللون من وراء النــوافذ ٠٠ يقعــون تحت الكراسى ٠٠ وفى السقف كانوا)

ـ أجميلة زوجتك ؟ قل ٠ لن نأكلهــا ٠٠ لدينــا زوجات ٠

(فى الارض هم ٠ يرقصون فوق كتفى)

ـ لكنهم كالخفر ٠٠ ذوى المكانس والنبابيت ٠٠

ـ و ٠٠ ولكنا سوف نتعارف ٠ ونتحاب ٠ ونتزاور عائليا ٠٠

(يبتعدون ٠٠ يرمونني بنظرات الضجر ٠ ويغلقون من دونى الأبواب)

ـ غدا يفرغ رأسه وينام ٠ وينام مثلنا ٠٠

(محاولات الصراخ والاستغاثة ضرب من التفاهة

والسفاهة فالجيران نيام والامــر ينبغى له الكتمان والا كنت فلاحا بلا شرف · فما حدث قد حــدث كما تقول هى ·· لكن ··)

الخوف فى الفناء والارتجافة فى البدن · و (كخلايا النحل يحومون · يحرقون · ضروس مدببة وحــادة · تتباعد ·· تتدانى · التصق بالجدران مبتعدا ·· حدقت فى وجهى بسحنة ملتوية أولتنى ظهــرها ·· اقتربت كطفل مذنب ألامس كتفها · نفرت وقالت :

_ اغرب عن خلقتى ··

ارتعش بدنى · قالت وجسدها البض يتلوى :

_ سوف تظل هكذا طفلا فاشلا ·· حتى يقضون عليك ·· ياخائب ··

· وكانت الأنياب تبدو · جماجم فارغة وهيــاكل وجوه ·

_ تجرى فى الشوارع ويجرى العيال من خلفك ··

تتكاثر فى الزوايا ·· أضراس تتداخل ·· تغير فى الذاكرة ··

_ ·· ويشيرون اليك بالعبيط الفاشل · ويمكن

أن يكون لزوجتك نفس الصــفات ٠٠ عبيطة وفاشــلة ومنكوشة ٠

تتفاقم الأصوات والضفادع والنظــرات المختلسة تحت الكائنات الجامدة ٠٠ تصرخ فى الأذن ٠٠

اضطرب ٠ اضطرب وامتلىء ٠٠٠

ــ تنتظر زمن الراحة والاستقامة ٠٠؟

الحجرات تدور ٠ الاضراس تدور وتهاجم اطارات الحوائط ٠٠ تتوقف هنــاك ٠٠ والزوجة ضرس يتفاقم طوله ٠ قالت بقرف :

ــ أرأيت الذى يفعلون مارأيت كفوفهم الناعمة ؟ لم لاتفعل مثلهم ٠ انهم يدخرون كل الراحة فى بيوتهم ٠

فى عينى حــدقتا المدير ٠٠ متصلبة وتتصلب ٠٠ تنكش فى رأسى الحــزن والضيق : لماذا ترفض هــدايا القوم الآتين ٠ انهم أخذوها عن أســلاف لهم ٠ خــذها وتهندم ٠ زملاءك أفضل منك شكلا ٠

انطلقت فى كل الامكنة والزوايا أبحث عمن يجوس برأسى ٠ كائنات تحاصرنى ٠ ضــحكات شرهة لزوجة يقطن الشر فى عينيها ٠٠ خائنة النظرات) ٠

(يتسلقون الجدران والأبواب · وجوه كالجماجم كانت تنشد اللحم كسوة ·· عيون تداخلت فى فراغات مابين القراءة والاجفان تلتقى فى شكل دوائر سوداء ساخرة منى ·· تتخذ أطراف المكاتب متكئات · وتلدعنى ألسنة حداء تجوب آطرافى ·· يهتز قلمى ·· تجردنى من ثيابى ·· تقبل الى داخل عينى ·· تختلط برواسب رأسى وتفجر ماكان يذهن النائم ·· وصوتها المخشوشن يتحشرج ويقول :

ـ سوف يذبل شبابى · ويزوى عمرك مع مبادئك الكريمة ·· ماكان لى الزواج من مثلك ·· كلهم يأخذون من هدايا القوم ·

(تصلب المدير فى عينى وتوقف فوق ذاكرتى)

ـ أشيخ أنت ؟ أمزقت الصلاة جبهتك ؟

وطافيـــة رواسب الزمن القـــديم ·· والده يبثه تعاليم القرية وأصول الدين وحال الدنيا والناس فكانت فيه ·· نظراته فى جانبى الابواب الى القضبان تجول فلا من دبيب ينذر بقدوم القطار ·

(تعجب بالآخرين · أليس مثلهم أنا ؟ حامل صفات

الأرياف ورجولة الأرض وحب الناس • أردت أن أكون متعلما فكنت •• ألا يكفى كل ذلك ؟)

تعلو الجدران والسقف رقم هو فى تلك الساعة •• ريح فى الأعقاب تجىء • تدور •• فى الفناء •• قصاصات ورق وذرات رمـل وبدنه المرتجف • تمسح الأرصفة العارية •• تداعب القضبان البراقة ••

الوقت المتشنج ضجر يقاوم الليل والرأس فيما هو فيه •• يدور •• يحمل جسدا يطفح ماضيه •

الريح حضور الأمكنة ••

(فئران كانوا •• يتجهون الى) يتوقف وينكمش • يحدق فى سقوف المكان ويدور •• مقـاعد تدور •• رؤوس تموج •• (يحاولون بلوغ دائرتى •• مقعدى • فراغى • هيهات مايفعلون •• لن تمتد الى آنيابهم مثلما امتدت لزوجى) •

والفناء يدور •• قرص الساعة مثبتا فى جدران يدور • يلتصق باحدى الابواب مخبئا يديه خلف ظهره تاركا معطفه مفتوحا ظاهرا جزء من عريه ••

(لن تبقى •• سأرحل • نعم •• عد الى هناك •

سأرحل الى هناك • انهم يقبلون • يقبلون •• أنيـاب مدببـة •• يلصقون شـفاهم •• يمسـحون أبدانهم ويضـحكون وراء الكراسى •• يزحفـون فوق آفاريز النوافذ •• آكلون لحمى البض • فى البيت يأتون •• يملأون فراغاتى ويقتحمون نسيانى •• يجتذبوننى من التصـاقى •• يدوسـون فوق انكمـاشى •• يجيئون يضغطون بقوة ويعتذرون ويعتلون منكبى • يصرخون فى أذنى وتداخلى ويزداد الصراخ •• كانوا يقطعون فى الطريق الآتى امتداد الألسنة القضبانية ويقفون • فى ضباب يتكاثف •• والفناء يتسع •• يختبئون تحت الكراسى ويخرجون ألسنتهم) (ممدة كانت وعارية فوق أفريز قاطعى التذاكر) •

انطلق مسرعا يجـوب المـكان • يرتقى الكرسى • يحدق فى الساعة • ود لو يحطم هذا الرأس • ان لم يأت قطار الفجر المتأخر • ان لم يحمله •

(كانـوا يقعـدون ويلوون فى وجهى سـحناتهم الملونة • يعقدون مابين أنوفهم والحـواجب ويتهامسون بأصوات خافتة محاولين ابداء مايفعلون • يرتع بيـدى القلم وتحضر زوجى بعريها البللورى فوق أوراقى وحينما يشعرون بأنى أراهـم • تنكب رؤوسـهم فوق المكاتب

ويبدون استعدادهم التام فى العمل المضنى بين الأوراق. تتوقف يدى . وانطلق خارجا قبل انصرافهم .. انهم يسابقوننى اليها حتما ..) كان ينكمش والفجر يقاوم الظلمة .

هبط دروب القطارات .. وارته جدران الأرصفة والضباب عن مداخل الفناء . لوح بذراعيه يقبض كثافة الضباب .. فليشد من رأسه هـذه الاضراس المغروسة فيه .. انحنى بسرعة وقام صعد الرصيف .. جاب كل الممرات جريا .. ضاغطا على نابيه مكرمشا سحنته .. آكلا غيظه ..

(يتلقون المدير الخارج من قوقعته بوجوه باسمة .. منحنى الظهور اجلالا وتبجيلا وكأنهم لاقوا ولى النعم فى يوم التعب والتفانى .. يصلحون الثياب .. يبعدون حاملى طلبات الرأفة فى الأرض .

ويقدمون التحيات .. ينتفش المدير وينتعش .. يتطلع لوجهى الصامت .. يغرس نظـراته فى عظامى البارزة ويحرك رأسه فى خيلاء بينما تتضامن نظراتهم ويحدقون بخبث وحنق .. أبزغت الشمس لتحمى المطر؟ وتذر بالرياح بعد زمن عبوث ؟ ربما) ضـمه الكرسى

والساعة ٠٠ رغيف متضخم حجـرى ٠ عال ٠٠ جسـد بللورى بارد ٠ يلتمس الحركة فيه ٠٠ ابداء نفوره ٠٠ قلب مات ٠٠ لكنه ٠٠ لكنه ٠٠

الرجفة ٠٠

تغص بهم الشوارع والأزقة ٠٠ يقتحمون البيوت الآمنة ٠٠ يبيعون الحب وينسجون الخيانة ٠٠ كان يحدق فى كل الوجوه ٠٠ فى كل السيقان العارية ٠ عارية ؟ بللورية جامدة (أنا فى هـذه المدينة لا أعـرف البكاء والحزن وضغائن الصدور وحلو الحديث فى حضور الرئيس ولوى الجزع خشوعا لغير الله والأرض حين تنغرس فى الفأس ٠ والصلاة ٠٠ فحاصرينى بطينتك اللزجة ٠ لفى شـعورك الخضراء فوق تعبى كظل الشـجرة بعد العزق وكضوء القمر حين يلتقى بحوافى)

مدفونة مؤخرة الرأس فى عنق البالطو ٠٠ مصلوبة العينان فى الرغيف الرقاقى العالى ٠٠ سهم مصوب الى صدره ذلك الرقم ٠٠ يملأون الفنـاء والأرصـفة ٠٠ يشدون الضباب بأيديهم ٠٠ تشتد عضلات العنق وقطار لم يجىء ٠٠ مقتا ٠٠ مقتا ٠٠

يدفع السهم نحو صدورهم ·· يجيئون ·· يقاوم ·· يعتلون الذاكرة ·· يحاول مسحهم ··

(حيث الوديان ومعـارج الحقـول وسعف الديار الواطئة وصنع الأرغفة وأصوات الجواميس وأيدى البنات عندالترع تملىء الجرار وتحركات السحب الهلامية ·· رجال طيبون ·· راضون ·· لحاهم ليفية ·· ذرات من قطن حصدوه وآفنوا زمانهم فيه وجاوروا فى الأبد سحب متراكمة ··)

(امرأة توسدت لسانا ناعما وكأن النابين متكئا لها· والاضراس حماة وفراش يحف به الحب حين آقبل اليه بعد صباح سأم فيه تآكل نفسه تحت مضـغ الاضراس له ·· كانوا يهيمـون فى النظرات الخـائنة ·· يلعقون بلورى ويضحكون ··)

فى الطرقات هم · فى النوافذ والعربات · يزحفون خلفه كلما سار (يشهرون آنيابهم ·· التفت فيضحكون ·· اصطدم بهم ·· يساندوننى ·· يربتون على ظهرى ويمضغون ·· يعاودون الجـرى خلفى ·· آعـدو ·· ويعدون ··)

يعدو فى ليل مظلم ·· محطة خـاوية ·· آبواب

ترتفع رويدا ٠٠ فناء يتضخم ٠٠ يهتز ٠٠ ضباب يذوب
فوق الأرصفة ٠٠ رياح تأتى ندية وباردة تزاحم انكماش
البدن العائد الى كرسيه ٠

تداعب رأسا هده القهر قد تداعى وغفا ٠ كان
ينتظر قطار الفجر ٠٠

النبش فى الذاكرة

« خبطت رأسى فى البـاب بقـوة ‥ » واهتز ‥ خبط نفسه وارتد ‥ تزلزل ودار اسـودت الجـدران ولفت من حولى ‥ انقلب السلم واعتلى الرأس ثم اعتدل ‥ ورغم ذلك لم يخرج عنه ذلك الشىء المدفون ٠

حينمـا فتـح البـاب ‥ قال من خلف جفـونه الملتصقة ‥

ـ خرطوشة ٠

ـ نعم ‥ الخرطوشة ؟‥

ـ أية خرطوشة ؟

ـ التى تركتها معك ٠ انى أذكر جيدا اننى تركتها معك ٠ واذكر أيضا أنى لم أستردها كما أنك لم تردها لى ٠ كما أذكر أنى عدت بدونها ٠

اهتز بدن المخبر وتآكلت حروف كلماته ‥ كان

مستندا الى باب شقته التى فى الدور الرابع حاول أن يرفع جفنيه ·· ثقيلان ··

ــ اننى لا أذكر ماتقــول ·· أرجــو أن تبحث فى مكان آخر · هنا مكان نوم · أريد أن أنام ·· اذهب ·· ربما سرقها أحدهم ·

تركنى أحدق فى شراعة البــاب ·· بــدأت أهبط السلم بحذر · حتى سلمتها له ·· لا أذكر لكنه هو الذى رافقنى فى عصر اليوم الماضى ·· أعرف هذا جيدا ·

حين هبطت الدرجة الأخيرة تباعدتذراعاى واشتدت فيهما أعصابى وانفتح حلقى وأخرجت شهيقا وأغمضت عينى ثم دمعت ·· تركتهمــا ·· تطلعت الى البــاب الخارجى للبيت ·· خرجت ·· الشارع يحاول أن يصحو من غفوة المساء ·· نظرت فى زوايا الشارع الأربعة أو الثمــانية ·· فــركت رأسى ·· انفتح حلقى ودمعت عينــاى ·· ارتعش الرأس ·· رفعتــه ·· واجهتنى العمارة القديمة التى هبطت منها ·· مال جسدى الى الخلف ·· حين انتهيت من التثــاؤب سرت قليــلا ·· وتوقفت ونظرت فى اتجاهات الشارع ·· امتدت قدمى لتسير ·· هززت رأسى بقــوة ليعيد لنفسه توازنه ·· البيوت لم تزل مقفلة ·

يبدو أن أصحابها مازالوا يغطون فى النـوم رغم طلوع الشمس ٠٠ وانطلاق بعض القطط التى راحت تنونو ٠٠ حين توقفت ٠٠ توقفت معى مربعات الرصيف وتذكرت أننى أحصيت حتى الآن ستة بالوعات ٠٠ اثنان منهم يطفح فيهما الماء والقاذورات الانسانية ٠

ـ تبحث عن شىء يابك ؟

كان رأسى يشبه قطمة العجين اللزجة ٠٠ ممطوطة وغبية ٠

رأيت وجه المتحدث من تحت جفـونى ٠٠ قصـير وبدين وذقنه نابتة ٠

ـ أتبحث عن شىء يابك ؟

ـ لا ٠ لا ٠٠ أبدا ٠٠ فقط أبحث عن ٠٠ لا أذكر تماما ولكنى أذكر أننى أبحث عن شىء تركته فى مثـل هذا المكان ٠٠

ـ هذا جراج ٠

ـ نعم جراج ٠

خبط الرأس فى الجدار القريب ربما يزيد المسألة تعقيدا ٠٠ ولكن كيف انتزع أشيائى المدفونة ٠٠

قال الرجل القصير البدين :

ـ يبدو أنك تبحث عن شيء مهم .

ـ نعم .. هو كذلك .

النظر فى أرض مربعة يدير الرأس ولا يخفى الحيرة .. تطالعنى قدما الرجل .. حافيتان .. ومتسختان .. استدار لينصرف .. فتح فاه وضحك .. بدت أسنانه ، صفراء .. متآكلة دخلت سحائب من الدخان فى أنفى .. نفدت الى داخلى .. غزت الرأس والمخ ..

منذ لحظة فقط نعم .. منذ لحظة فقط .. استدرت الى الرجل .. توقف ونظر الى .. حدقت فى السيجارة المسجونة بين أصابعه .. حدق هو فى سيجارته .. ثم نظر فى وجهى وضحك .. مثل قطعة حلوى بين أصابع طفل يلهو .. كانت ترتفع وتهبط .. تدخل بين الشفتين .. تشد دخانا وتنصهر المقدمة .. تصبح رمادا . ثم تنزع .. يتكون الدخان داخل الحلق .. ثم يطرد .. يتعرج .. يتعرج .. بلذة .. ببطىء .. مغمضا نصف عين .. ناظرا بالعين والنصف الأخرى الى تذكرت أن عينى تسلقتا أصابع الرجل ذا الأظافر السوداء .. قال وهو ينزل يده الى جواره ـ أظنك يابك

•• لن تجد ذلك الشيء الا عندما تتذكره ؛ لعنت صديقي المخبر •• انطلقت مسرعا •• كان الشارع يصحو رويدا •• فتحت النوافذ الهابطة بجانب رأسي •• رشت الماء فوق الرصيف بجانب قدمي •• ارتفعت أبواب الدكاكين وفتحت النوافذ ولفظت أبواب البيوت بعض أطفال المدارس •• مذ زمن بعيد •• بعيد •• أبحث عن مسكن •• أذكر ذلك جيدا •• افتش في محتويات رأسي •• أبحث عن بديل لزوجتي الحالية •• نعم •• كما أذكر •• أضغط على الاشياء الراكدة به لعلها تصحو •• المخبر ذلك أذكره جيدا •• أسير في متعرجات الرأس بحثي عن تموين الشهر من السجائر التي أكلها صديقي أبحث •• أبحث عن مكان خاو لم تمتد اليه ذاكرتي •• أذكر أفعال البك المدير ورئيس الموظفين ومواضع الفول ومكان الشاي وأعمدة الجريدة •• والكلام الفارغ •• أقبلت داخل جراج : تجوب نظراتي مابين السيارات • قام الرجل •• يسرع نحوى •

– ياسيد •• ياسيد •• انتظر •

انتظرت •• توقفت عن العدو •• تطلع الى الرجل •• عجوز كان ••

– عم تبحث ياسيدى ؟

ـ أبحث عن عجلتي ٠٠ منذ ساعة أبحث عنها ٠٠ عجلتي ٠٠ عجلتي ٠٠

حدق هو الآخر في وجهي الذي كان ينتفخ ويتضخم ٠٠ ألهث وأعرق وأسعل بقوة ٠٠

ـ اني لم أرك قبل الآن ٠٠ يبدو أنك مريض ٠٠ مثلي تماما ٠٠ ابحث في جراج آخر ٠

٢ ـ حين وجدته في الطريق ارتعب قلبي وخفق ٠٠ كان مقبلا على ٠٠ توقفت عن ترنحي ٠٠ واتجهت الى عجلتي البخـارية التي كانت بانتظـاري ٠٠ كانت مجموعة من المخبرين في زي واحد ضمني اليه بقوة ٠٠ صدمني شيء مكور في صدره ٠٠ علمت فيما بعد انهـا زجاجة خمر ملفوفة في جريدة ٠ قبلني في شفتي ٠٠ وضحك ٠٠ ضم كتفي اليه وضحك ٠٠ ارتفعت ضحكاته وهو يهذي بقوة ٠٠ صاح بكلمات غير مفهومة ٠٠ أفرز في وجهي رذاذ فمه ٠٠ سكيرا كان ٠٠ يقول ٠٠

ـ سنسهر معا ٠٠ اني نوبتجي الليلة ٠٠ هنا على الشاطيء ٠٠ تعال ٠

توا خرجت من الحانة ٠٠ بودي العودة الآن ٠٠ لم يطاوعني صوتي سحبني الى بار آخر غير الذي كنت به

•• وضع الزجاجة وجلس وجلست •• صفق بيديه ••
جاء الساقى ••

أفرغ صديقى المخبر زجاجته فى جريدتها وطلب كوبين •• قال الساقى بصوت مكتوم :

ـ ممنوع يابك ••

وضعت يد فوق عنق الساقى •• قالت اليد :

ـ هات طلب البك •• هذا صاحب المكان ••

فعل الساقى وانصرف •• اتجهت عيون الرواد الى شاب ذى لحية وشارب ، مضى يقول وهو يتأمل كأسه ••

ـ أيه •• يامحببة الأفكار الراكدة •• ياسلوة المكتوم فى ليالى العذاب •

ومن زاوية فى المكان علت ضحكة رنانة •

ـ فلتنهض يانوبل من رقدتك الأبدية ولتبعث من جديد ـ ولتمنح جائزتك المزعومة لمصر فياكل عاهرات المدينة •• ياكل مومسات المدينة •• ياكل لصوصها وخطافيها •• ياكل متسولى المدينة •• ياكل الفقراء والمحتاجين •• ياكل يد بناءة وبطن جلابة •• شدوا الوثاق • شدوه •• علقوا على بطونكم آيات الصبر

والتـأنى ٠٠ ولتلتصق جلود بطـونكم بالنخـاع ٠٠ ولتحافظوا على أحـزمتكم وأحـزمة العفة ٠٠ فسوف تنضب الارض بعد نضارة ، ويحدث العقم بعـد ذلك وتبطل الخلفـة وينتهى من العـالم كل الاطفـال ٠٠ وتكبرون ٠٠ تكبرون ٠٠ وتكونون من بعد ذلك شهداء الواجب والانسانية ٠

تصفيق حاد من أماكن متفرقة ٠

٣ ـ لم أشعر أني بالعراء الخارجي الا عندما لفحنى هواء البحر ٠٠ وجدت نفسى مستندا على كتف صديقى المخبر والذى كان بدون ارادة منه يحاول التماسك ٠

سمعت ذلك الخطيب يقول :

ـ أترون ٠٠ انهما يستندان ٠٠ ماهذا ؟ انهمـا يضحكان ٠٠ ماهذا ٠٠ يضحكان ويقتربان من سـور البحـر ٠٠ ماهـذا ٠٠ لعلهما يـودان الانتحـار ٠٠ ياللمصيبة ٠٠ انهمـا يقتربان من عجلة بخـارية ٠٠ التفت الى المتحـدث المعتـوه ٠٠ حـين حاولت بصرى عنه ٠٠

وجدت نفسى وحيدا ، رأيت صديقى المخبر يصعد فوق الرصيف ٠٠ زجاجته تحت ابطه ٠٠

وخرطوشتى .. نعم هى .. خرطوشتى .. تحت ابطه الآخر .. محشورة .. حاول جاهدا ان يكون طبيعيا وهادئا .. ولكنه كان يضغط على الخرطوشة .

ــ وأنى لم أر منذ ولدتنى أمى .. سكيرين .. يقودان عجلة بخارية ..

يوقظ النائم .. لايفعل شيئا مما يريد أن يفعل .. ويجمع زجاجة .. أبدا .. فقد ترك يده تعبث بطرف الرصيف وورقة تحت ابطه .. وخرطوشة تحت ابطه الآخر .. وهكذا .. وهكذا ..

وهناك من يواظبون على ربط البطون ويعلقون آيات الصبر ويرتدون أحزمة العفة والله أعلم وأنتم لاتعلمون .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

٤ ــ أمد الخطى .. تحتوينى الازقة وتبتلعنى الشوارع .. نعم ان هذا ماحدث بالحرف .. ركب صديقى المخبر وركبت أمامه .. قاد هو أو قدت أنا لا أدرى .. ثم .. نعم .. ثم بدأت خطواتى فى الاسراع فى الجرى .. أعلو .. الناس يهبطون أكتسح زحام الشوارع .. الروائح النفاذة تنفذ الى .. تمرق الى رأسى .. نظرت فى ساعتى .. والأمر لله .

كان وجه البك المدير متقلصا ·· يشبه بطن المرأة الحبلى ·· قال :

ـ كم الساعة يافندى ؟

ـ الساعة لم تتجاوز السابعةوالنصف وخمس دقائق ياسعادة البك ·

ـ قلت العاشرة الا الربع ···

ـ السابعة والنصف وخمس دقائق ·

ـ ساعتك مخرفة يافندى ·

ـ ساعتك انت يابك ··

اندهش البك من نفسه ·· تراجع الى الخلف قليلا· رد معصمه الى جانبه وجلس ثم نظرت اليه وجدته يحدق فى وجهى وقد أغلق الدفتر بعد أن وقع عليه ··

ـ عموما · يومك منقطع ·

عندما أصبحت فى الممر الخــارجى لحجرة البك ·· وضعت ساعتى فوق أذنى ·· أسمع حــركاتها الرقيقة كانت ساعتى هى المخرفة وليست ساعة البك المدير ·· وأن ·· نعم ·· تذكرت ·· ذلك الآن ·· فقد أخرتها

عند عودتى الى المنزل ليلة أمس ‥ ساعتين ‥ سرت ‥ لا يهم ‥ لقد قطعوا العلاوة قبل ذلك ‥ ثم رفعوا الاجور ‥ وأنزلوا الاجور اتجهت الى فناء الشركة ‥ ورفعوا الاسعار ‥ سرت الى الركن المخصص كجراج ويقطعون كل شىء ‥ اعتليت مقعد العجلة البخارية ‥ ان أمى قاطعتنى عندما كنت صغيرا ‥ لاننى كنت طفلا فاشلا ‥ اتجهت بى العجلة الى الطريق العام ‥ أعلو وأهبط ‥ أمعقول أن أكون قد أتيت الى هنا فى الليلة الماضية ؟؟ وهل أستطيع أن أقطع بذلك ؟؟ ‥

(نشرت بمجلة صوت الخليج الكويتية)

الليل والاصوات

أرق يقهرنى ٠٠ جدران أربعة تتقارب ٠٠ لمبة مدلاة تحدق فى وتصهرنى ٠٠ نافذة مقفلة الزجاج يبدو الليل من خلالها ومصابيح البيوت المتراصة فى الجانب الآخر ٠٠ شرفة مستطيلة حتى السقف مواربة الباب ٠٠ دولاب ركن الحائط ٠ مائدة ومقعد ورائحة الزمن الموغل فى القدم والعتاقة ٠٠ سكون الصمت فى الصمت وكآبة اللحظات الثقيلة الجاثمة ٠٠ دفعت الملاءة بقدمي وذراعى ٠٠ تناثرت أطرافها فوق حواف السرير ٠٠ أز السرير تحت حركتى التى سكنت سريعا وجثم الهدوء الكئيب فوقى ٠٠

انفلق عن الصمت صوت قرعات متوالية فوق باب الشقة التى تصرعنى ٠٠ مفزوعا كنت أنهض وألبس خفى ٠٠ حد من ازعاجى عند مواربتى الباب رجل أقبل مرعوبا كان عاريا نصفه الأعلى ٠٠ مهرول السروال ٠ سريع الحركة ٠٠ قال ٠٠

ـ أرجوك ٠٠ خبئنى عندك ٠٠

أتراجع ٠٠ حدقت فيــه ٠٠ أغلق البــاب وتوقف خلفه ٠ يلتقط أنفاسه ٠٠ قلت ٠٠

ـ ومن أنت ٠٠؟

ـ أنا هاشم ٠٠

غلفنى الصمت ٠٠ جابت نظراتى نصفه السفلى ٠٠ أيحمل السلاح فى سرواله الصوفى القديم المثنى من أسفل ٠٠؟ دارت عيناه فى أركان الصالة ٠٠

ـ أنت وحدك هنا ٠٠؟

ـ كما ترى ٠٠

ـ عــال ٠٠

كخيوط العنكبوت نسج الصمت ٠٠ كان يلتف حول الوجوه والألسنة والحجرات التى اتسعت تحرك بخطوات حذرة ٠٠ تحركت ببطء ٠٠ قال ٠٠

ـ تنتظر أحدا ٠٠؟

ـ أبــدا ٠٠

ـ لاتنتظر أى شىء ٠؟

ـ لا ..

شحبت عن وجهه ابتسامة .. كانت تبعث بقلبى الاطمئنان الممزوج بالرهبة .. قال ..

ـ سهران وحدك .؟

ـ نعم ..

ـ سوف أسهر معك ..

فرك يديه واتجه صوب حجرتى .. راقبته مرتابا .. تحفزت نفسى له .. تطلع من جانب النافذة الى الطريق وابتلع ريقه .. ولانى وجها مضطربا .. وحين تقابلت عينانا أخفض نظراته وارتبك ..

ناولته الملاءة . لف بها نصفه العارى واقتعد الأرض وارتكن الحائط .. تنفس ..

ـ أجرى منهم منذ ساعتين ..

ـ ممن .؟

ـ الذين يطاردوننى .. يريدون قتلى .. أعرف أنهم يريدون قتلى ..

ـ من هم ..؟

ارتخى جلد وجهه القمحى المتغضن .. ولى نفسه صوب الشرفة . أشار بيده كطفل مذنب وهارب .. سقطت أذناى حيث الطريق .. ركزت تفكيرى فيما يمكن أن يكون أسفل هذا البيت الرث .. قلت ..

– اذن .. انت قتلت أحداً ؟ قتلت من ؟..

تشتت رأسى .. دارت ذاكرتى على الذين يجيئون عليه ويمكن قتلهم من السفاحين .. شدت قسماته المرتخية وجز الناب .. قال فى عزم ..

– قتلت القمر ..

لملم نفسه .. غريب النظرات .. محدق وخائف .. هززت رأسى وسر فى باطنى قابع بوجوب اقتناعى الجبرى والرضى الملزم وطرد الذين يوردون فوق ذاكرتى .. أمام ما أرى وأسمع : قال .

– ولأنى حببته بقوة والنجوم فى البلد ورفعت رؤوسا كالمعاول كانت مغروسة فى الطين بعيداً عن تناثر الكلام فى أطراف القوى .. فقد طاردوننى ..

خرجوا من كل الأمكنة والبيوت .. يجيئون .. يتوافدون من كل صوب .. تمتلىء الأزقة والشوارع ، بأبدانهم الضامرة .. تعلو أصواتهم المدوية . تسرسع .

تصعد • ترتقى طبقات الفضاء •• الله أكبر الله أكبر
يا بنات الحور •• سيبوا القمر يدور •• تتعالى دقات
الايدى النحيلة فوق أغطية الأوانى والصفائح القديمة
وعلب السمن الصدئة •• يمضــون الى الشــوارع ••
تقابلهم مجموعات أخرى • أكثر طولا وزعيقا وقوة ••
يهيمون فى الطــرقات وعلى جسور السكك الحــديدية
والقضبان •• يحدقن النسوة فى السماء دامعات الأعين
•• رافعات الأكف لالتقاط الضــوء الخابى •• تشرئب
الأعناق مادت الارض وتوقفت مناكب الشبان عن الحركة
•• أطفأ الرجال الأكثر عــزما أنوار البيوت الكهربية
الباهتة • واطلوا برؤوسهم من الشرفات الضيقة ••
حينما اختلطوا بالخوف •• تركوا الشرفات هابطين •
امتزجوا فى زحف الصبية والافواج • الصياح والجرى
والدق على قعورحلل أتوا بها وايقاظ الذين غفلوافالقمر
اكتمل هناك ••توسط السماء •• توسد كل البيوت ••
ضم كل الحارات والقلوب •• مخنوقا كان عليه غشاوة
قاتمة الصفرة كوجه محتقن باك ••

قعدت فوق الفراش •• أشعلت سيجارة قدمت له
واحدة •• لايدخن ••

ـ أنت رجل كريم •• أقطن فى طرف المدينة ••

الذين يقيمون هناك لصوص وخونة .. يعملون نهارا ويأتون ليلا حتى لايراهم أحد . الا عندما يكون القمر مكتملا .. القمر صديقى .. يدور معى فى المتاهات. فى ظلمات الليل فى محيط مسكنى .. احذر اللصوص والخونة لانهم يكرهون القمر . تأوه كل التعب المخزون بصدره . قال :

– حبيت القمـــر مع الصـــبية .. فى هـــذه الليلة بقميص .. كنت أود لو أحمله معى .. الى والدى ..

– ٢ –

أقائمة هى مخلفات الأيام البارودية وأتربة الأرض النافرة ؟ أزحفت عليك أدخنة البيوت المحترقة وتراكمات المصانع حتى حجبت الضـــوء عن أعين العيـــال فى حلكة الظلمة وأوقات خلو المشاعل الجـــدرانية من الغـــاز ؟ منتظرين قدومك لتتراقص تحتك النفوس فرحة يحيين لقياك .. ؟

بعثت الرقى والصحوة فى ذاكرتى .. قلت ..

– نسينا النور والقمر فى زحام الحياة ..

– لأن الحياة فى المدينة يبهر نورها العيون ..

.. اطمأن نفسا لصمتى الشارد ..

ـ ٣ ـ

كان لنا قمر .. فى الأرض كان يقطن العفة .. فى أودية القفر يتبختر .. يتطلع الى قمة الجبل البعيد .. يدعوه الغنى .. فى البلد القضية من الصعيد .. ينام بين أعواد القصب وشراشيب الذرة .. يتخذ من صفحات الترعة مرآة يرقص على حوافها .. جذلان يحمل الغذاء الينا عن كل ظهيرة .. يتهادى نوره حين يجىء . نشوان بلحظة التقـاء اخـوته .. نزرع للارض حبة «عيش» وتنام عندما يكون الليـل ويحـل التعب وتغط الجواسيس المشاركة .. اسمها القمر . فكانت . تعشق لياليه القصيرة تطيل التطلع من كوة الدار دون ملل .. ترجوه حين تزحف عليه تباشير الفجر البازغ . أن يبقى .. وكانت .

تصاعدت من الشارع هتافات عالية .. أصوات تداخلت .. حدقت عيناه فزعا ..

ـ لقد جاءوا ..

ـ من ؟.

وضحت فيه قسمات الذعر والتلعثم ـ نظر فى فراغ ..

ـ ٤ ـ

ولما كان يذهب .. تخفيه عن عيونها السحب .. ترتعش رعبا .. تدفن وجهها الصغير وشعرها الملموم فى صدر أمى وتبكى .. تضحك أمى ضامة الرأس الخائف قائلة ..

ان الظلمة لاتخيف .. وان الظلمة سوف تذهب ذات يوم .. وان اللمبة مضاءة ورجال البلدة مازالوا ساهرين .. تنطلق نحوى .. تدور فى الأركان كقط سجين .. تنكمش فى ضلوعى .. أحس بدنها اللين والدفء .. أضمها .. تقول .

ــ أنا خائفة .. خوى .. انى خائفة .. لا أحب الظلام ..

... فى ليلة مقمرة .. أيقظت نومنا ديكة الفجر .. كان القمر قد تلاشى .. تلاشى .. وغاب ..

صعق صوت ضخمة مكبر ..

ـ اهبط بسلام ·· البيت محاصر ·· اهبط بسلام ·· البيت محاصر ·· اهبط بسلام البيت ··

ألقى عن نفسه الملاءة ·· بدأ يدور فى اتساعات الحجرة كفأر ·· انكمش بجانب الحائط ينزف عرقا قلت ··

ـ لاتخاف ·· لن أجعلهم يأخذوك ·· سوف تبقى معى ··

تفاقمت الأصوات فى الشارع ·· تتسابق وتملأ الكون ··

ـ سنهاجم كل المساكن ·· كل المساكن ··

ازداد ارتعاشا ·· أشفقت ·· تحركت قليلا · قلت ··

ـ سأعد لك كوبا من الشاى ··

توقفت عندما نهض سريعا ·· تعلق بكتفى · لامست ارتعاشة بدنه بدنى فنفرت ·

ـ لا · سوف أنصرف وحدى ··

ـ سوف يأخذونك الى السجن رأسا ··

تقلص وجهه وبكى .. تتلاقى أعضاؤه فى نوبة ارتجاف عنيفة .. ارتخت فجأة .. سكن وحدق فى الفراغ ..

ـ ٥ ـ

أطلقنى أبى لظلمة الليل .. حين لطخو دارنا بمر الكلام .. احبطت مباحث أبى واصابه الوهن والتجهم. يقولون فى الكلام .. فى المدينة هى تقيم تحت أنوار ملونة .. تاركة شعرها الملموم تلهو به الريح تغشاه الأصابع عابثة .. يطأها الناس ويعلوها كل ليلة قمر يشع نوره حتى يعمى الابصار والقلوب ويحرق العقول ..

الأصوات .. دخان .. يتصاعد من أمكنة سحيقة .. تتغول .. يردد صداها الليل والجدران والحديد والأبواق والأسفلت والضلوع المحترقة ..

انطلقت الى الباب وثب ورائى . أغلق الباب بالمفتاح .. كان خلفى تماما . خفق قلبى .. قال :

ــ أتريد حبسى هنا ؟..

ــ أبدا ..

ـ عندك تليفون

ـ لقد رأيت كل شىء هنا ·· لاتخاف

الشارع بركان ·· الصوت ينتشر · واثقا · كان يعلو ··

ـ اهبط أسلم لك ·· سلم نفسك · لن تستطيع الهرب ··

في باطن القلق ·· يتبخر ·· رويدا ·· قلت ··

ـ لاتبدو عليك سمة القتلى ·· والا راودنى الخوف منك ··

يتجسد الفراغ فى العينين الشاردتين ·

ـ ٦ ـ

يجرى العيال ·· عندما بدأت الأنوار تخبو وتخمد النفوس ·· كنت أرى القمر فى المدينة شاحبا باك ·· أسأل العابرين عمن أبكاه ·· يضحكون منى ويقولون ساخرين · غـابت ليالى القمـر ياحلو ·· اذهب الى الاطراف سوف تجده فى الصحراء صحوا ··

يطوفون ·· أطوف الشوارع والأزقة ·· أسـأل

المارة ونيام الأرصفة ·· أغشى ملاجىءالسهر والمضاجعة وأماكن صحبة الكأس عن قمر شعره ملموم · يضحكون من قفاى وعمامتى وقفطانى · تعبت بحثا ·· سحقتنى عجلة الأيام · ضمر بدنى ·· أستنزف الحزن منى الدم والمدينة ترتدى وشاحها القاتم ·· كان القمر مخنوقا · وكان العيال يجرون ·· مخنوقا كان · كوجه محتقن باك ··

خلعت قميصا أعطانيه الزمن ثمنا لبقائى تحت المصابيح والنيون ·· جرفتنى تجمعات العيال ··

أهش عن وجه القمر الغشاوة ··

كانت تصاحب البنات الدق والصياح ·· تجرى ومن حولها الفتية يجرون ·· يحوطونها ·· يلتمسون من عريها الظاهر دفء لحظة يصيحون ·· نريد الصعود فوق القمر والارتقاء ·· وتقول ··

فليبعد الجميع ·· ادفعوا القتامة عن وجه القمر ·· وعندما يضاء النور فى المدينة ·· نلتقى ··

أخرجت مديتى ·· أهدانيها أبى ·· أغرسها فى جانب القمر الأيمن ·· كان يطل القمر مخنوقا باهتا

·· يتساقط ·· أجرى تحته أجرى ·· يلاحقنى القمر المخنوق ·· تلاحقنى معه الأقدام ··

سقط رأسه وغلفه الصمت ·· تتشاجر الاضراس ·· فى غيابة الخوف كان ·· يقيم جفتين ذابلين ··

قرع الباب ·· النـاس فى الطـريق ·· تشرئب الأعناق والصدور ·· وكأن الحـدقات تبلغ المكان ·· انكمش ود لو تزحزح الحائط ليدخل فيه ·· لكنه قائما لايبالى ·· صوت الصاعدين فوق السلم دبيبا يأتينى كما الذباب يطن حول الرأس المصلوبة فيـه عينا الواهن · قلت ··

ـ أولى بك أن ترتاح فى مكان مستقر ··

حدق فى وتداخل أكثر ·· قلت ·

ـ لم أقصـد طـردك ·· ولكنك لن تبقى هنـا كثيرا ··

نزف عرقا وبال ·· ارتجف صوته ··

ـ لا مكان لى أذهب اليه الآن ··

فكرت فى الجانب الآخر من الشقة والحجـرة التى هناك ·· توارد الى ذهنى دبيب الأحذية ··

وصوت القرع البعيد ·· وجوب الفتح ·· الاصوات تعلو · تتكاثر بشكل رهيب والجسد يلملم بعضه ·· كالخوف من بتر عضو غفلة ·· قال ··

– تبدو عليك الطيبة والرجولة ·· ابقينى حتى يذهبون ·· سأرجع الى البلد ··

والكون أصوات ·· تحركت من وقفتى ·· نزعت ثيابا من فوق العلاقة ·· راقبنى فى حذر ·· تقدمت اليـه بالثياب ·· احتضنهم الى صـدره وشـكرنى في صمت ··

كعواء ذئاب الليل الميت كانت أصوات القوم ·· تتصاعد ·· تخترق الجدران والابواب ·· ألواح زجاج النوافذ ··

تتصارع فى الرأس وتصير فى كل الاتجاهات ·· والباب يقرع · الميكرفون يعيد نداءات الرعشة ··

وصوت جار لجار يجأر ··

– اكسروا الباب لعل القاتل قتل الساكن ··

قلت ·· أرتاب ··

– سوف تذهب صباحا ··

اندفعت الى الصالة ·· الباب هناك والقرع ·· انطلق خلفى · ارتعبت منه ·· مددت يدى الى درج الدولاب ·· أخرجت مالا ·· نقدته اياه ··

الأصوات ·· شاهقة ·· جهورية اللغط تلتهم كل الاشياء ·· الكائنات الحية والجامدة·· تعلو كأنها المدينة أصابها الصحو ــ فالصحو فى الاركان ــ سيول مطرية فوق العرايا · والبرد حتى الكمد ·· أعاصير ·· رياح تأتى بقوة الاصوات ·· دفعته حجرة نومى وأغلقت الباب ·· فليمضى ليلته وليذهب صباحا ·· والقرع يزلزل جدار الباب ··

بدت الاصوات أكثر انتظاما وتركيزا ·· أصبحت تعزف على وتيرة واحدة تنشد سحق المجرم ··

تتسلط فوق أمنيتى الملحة فى بقاء الجسد المرروض المضمحل بالداخل تمسح عن ذاكرتى حين تغشى رأسى وأذنى بقوة ــ القمر المخنوق فى قلب دار الصعيد القصى ·· لكن المقاومة تقاومنى والجسد الواهن بالداخل يتفاقم كبرا ·· يتبدل تحت الاصوات ·· بشكل وبائى ·· يتوالد كلما انصرمت عليه الايام ··

تحلقنى الأصوات ·· انفلق رأسى بين الباب والباب

الآخر .. اختنق : يمور بدنى تعبا .. تتصاعد منى الروح .. يجثم فوق الصدر .. يقلص الامعاء .. يزاحم رئتين ومنافذ أنفاسى .. ترنحت دائخا ارتميت فوق الباب ـ كانت الاحذية تتكاثر .. تضخم .. تتدافع . تتحرك الى الداخل متراكمة هى وقوية تتخطانى .. تقبل الى الحجرات .. نقبوا بكل الأيدى والعيون والوجوه والرقاب .. فى الشرفة تطلعوا الى الطريق بدقة ..

كانت الاصوات مازالت تجىء . خافتة .. تواصل الطعنات ..

الأصوات طوفان .. فى صدرى ورأسى .. كان البدن الواهن للرجل الواهن .. طريح أسفلت الشارع .

تمت

جمهورية مصر العربية

مطبوعات
المجلس الأعلى للثقافة

رقم

- ٢٧٣ -

القاهرة
١٤٠٣ - ١٩٨٣

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٣/٥٣٧٧

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢٤٧ ـ ٤